دیلارا

ديلارا

الحب الهارب

رواية

إيمان يوسف

تصميم الغلاف: محمد محسن

تدقيق لغوي :محمود ربيع

رقم الإيداع: 2020/2348

I.S.B.N:978- 977-6640-83-2

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

إيمان يوسف

ديلارا

"الحب الهارب"

رواية

إهداء

إلى

مَن آمنوا أن الحياة لا يمكن أن تكون دون حب

إلى من بحثوا عن الإجابات بداخل أنفسهم، وإن تألموا في رحلتهم...

إلى مَن آمن بالروح ولقاء الأرواح قبل الأجساد، ونور القلب والمحبة...

إلى من أحَبّ بصدق وتخلّى برُقيّ...

لروحك الراقية....

أهديك روايتي.....

إلى

الأصدقاء... أصدقاء المعتكف الكتابي... لمدربي ومعلمي... للرائعين في حياتي... ورفقاء الطريق والأحباب... إلى الصحبة الآمِنَة من تقلب الحياة، ورحيل الأحبة وطول الانتظار...

أحبكم والله يعلم....

إلى روح أبي...

وقلبِ أمي الحنونة...

وأخوتي...

أهديكم كلمات من نور تشبهني...

(1)

عندما لا تريد أن تخبر أحدًا عنك...

عن تجربتك الخاصة، عن عدم قدرتك على التحدث، عن إيمانك أن كل شيء لا يهم، ولا شيء يستطيع أن يُحيِيك، إن فقدَكَ لذاتك أولًا ثم توالِي الفقد.. عن خيباتك الكثيرة، بل وخذلانك لذاتك أيضًا.. إنه شعورك الشخصي، لا أحد يستطيع أن يعرف ماهية شعورك.

ولكن بينما تشعر بذلك تجد أن بعضًا منكَ يحب.. يحب بكامل ذرات جسده، بكامل أوتاره، بكامل خلايا عقله، بل أحيانًا بكامل جنونه وهذيانه.. وإني عندما فقدتُ ذاتي، ولا أعلم إلى أين أذهب، أهرب إليها، حتى ما عادت إلى جوَارِي، إنها إحدى الملائكة التي جاءَت إلى الأرض خطأً.. إنها إحدى تلك النبوءات التي إن جاءت تحوّل كل شيء حولك؛ فكل شيء لم يعد كما كان، ولن يعود أبدًا.. إنها فتاتي والحب الذي لم أستطع أن أميتَهُ بداخلي، أو أن أبقيه.. هي مَلاكِي الخاص.

هي ديلارا

(2)

أحبه كثيرًا، ولا أستطيع أن أخبرَه، لم أستطِع أن أفعل به ذلك.. إنها أنا بكل ما فيّ من تناقضات، أحبه كثيرًا وأتركُه مرارًا، لا أعلم لِمَ كلما اقتربت منه يخذلني القدر، يفعل بي ما يشاء.. يبكيني كثيرًا حتى ما عدت أريد أن أنكسر، أحبّه ولا يمكن أن أبوح له بذلك، طالما كان إلى جوارِي، لقد تخلّل وجوده داخلي؛ حتى صرنا واحدًا! يتألم لألمي، يضحك عندما أبتهج، يمرض عندما يأكل الوهن جسدي، لا أريد أن أحمّلَه أكثر من ذلك، فأنا رفيقة سيئة.. يتألم كثيرًا لي، ولا يمكنني أن أفعل شيئًا، ولكني سأفعل، ولكن عليه أن يسامحني.

(أحبك يا مازن كثيرًا)

سأترك لك هذه الرسالة يومًا، ولكن بعض الكلمات لا تستطيع أن تصِفَ ما بداخلك، ولهذا كانَت الرسالة بديلًا عنها، ولقسوتها! أرجو أن تسامحني!

آسفة.. سأرحل

ديلارا

-مازن-

(شباط 2018)

صحوتُ لا أشعر بأطراف جسدي كاملًا، لا أستطيع النهوض من السرير، وضعتُ يدي المرتجفة على حافة السرير الخشبي، وتحاملتُ لأقِف على قدَمَيّ، رنات المنبه تزيد انقباض روحي.. لقد رحلَتْ، ولم أستطع أن أُوقِفَها، لم أستطع أن أبقيها.. إنها صغيرة على هذا العالم!

تحملتُ برودة هذا الجو القارس، تلك التي لا تتعدّى برودة قلبي، ووقفت تحت مياه الدش الدافئة.. أبكي وأرتجف معًا..

لماذا رحلَت عنّي؟!

لماذا هجرَتْني؟!

لقد كانت عالمي -بأكمله-. ربما كان عليّ أن أتزوّجها! ولكنها رفضتني قائلة:

- إن حبنا يتعدى ذلك..
- إنه خطأي أنا.. حماقتي، وعليّ أن أدفعه وحدي.

لم أعلم من قبلُ أنني أحبّها بهذا القدر، لقد كانت دائمًا محبوبتي للدرجة التي نسيتُ بها أن أخبرها ذلك، بل مرارًا ترددتُ أن أقولَ لها إني أحبها، ولكني استبدلتُ ذلك بتواجدي معها، كانت دائمًا تُشعرُني بالأمان، هذا الأمان الذي أعطيتها إياه كما كانَت تخبرني، كان أمانًا متبادلًا لي أيضًا.. كانت هي من يطمئنني ويُشعرُني أن الوجود كله بحضرتها، وأنني بهذا الوجود يحق لي التنفس! نعم فقط التنفس، هذا الأمر الطبيعي جدًا، لَهُو بالصعوبة البحتة دونها، وإن اختصرته بمرض عضوي بجهازي التنفسي المسمّى بالربو، أو ضيق تنفس عارض كما قال بعض أطبائي، وإن قَلّ مع الأيام أو ازداد بفعل الحساسية الشديدة من مهالكٍ شتّى، إلا أنني أجد معها الشعور بالراحة والألم

معًا! ولم أستطع أن أتجاوَزَ الاثنين بأني وحدى لا أجد ملاذًا من الألم، ولا مفرّ، وأن الراحة لا تنبغي لي، حتى وإن كانت معها.

ولكنني أتذكّر أول مرة رأيتها فيها.. ديلارا فتاتي المحببة، كنت صغيرًا جدًا، وهي بالكاد تشبه عُقلَة الإصبع في جسمها الضئيل، لم تكن تماثلنا طولًا في عامنا الدراسي الثاني بالمدرسة؛ فقد كانت صغيرة، قصيرة القامة، شعرها أسود ناعم، وذات عيون صغيرة عسلية.

لم أنتبِه لتلك التفاصيل بعامي هذا، ولكن مع السنين لم تتغيّر أو تكبر ديلارا بعينَيّ يومًا، فقد ظلّت بنفس الشكل المطبوع بذهني هذا إلى اليوم، بوقفتها الهادئة في انتظار..

انتظار وصولي..

-ديلارا-

(انتظار)

دائمًا أشعُر أني بحالة انتظار.. شيء ما.. شخص ما!

أشعر أحيانًا أنني أنتظرُ أن أفعل شيئًا، وآخذ وقتًا كثيرًا لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟! أو ماذا أنتظر؟! لقد أصبحَ مُرهِقًا جدًا؛ لهذا تمرّدت، لم أُرِد أن أبقَى قيد انتظاري، أو أن يطول بي الأمل دون أن أعرف ماذا سيحدث؟ بل لا أعرف ماذا أريده أن يحدث؟!

لقد كنتُ صغيرة جدًا عندما ترك والدي أمي، ورغم أنه عاد إليها بعد ذلك إلا أنني لم أدرك ماذا فعلَ ذلك بي! ولكن فيما بعد علمتُ كَمْ من الأضرار لحقَت بي!

طفلة صغيرة وحيدة ليس لها أخوة، مع أم تعاني من عدم الاعتماد على النفس، وأب راحل فيما بعد.. جميعهم يرحلون في أشد أوقاتي احتياجًا لوجودهم، لا أجد إلا مازن، وهو الوحيد من بقي لي منذ صغري ورحلاتي بهذه الحياة من الرحيل المتكرر منذ وفاة والدي، وأصحاب لا أعرف لِمَ كانوا أصدقاءَ لي؟! ربما هي مصلحة ما! ورحيل من ظننت أني أحببتهم، ولم يتبقَّ لي من أحد، ولكن لِمَ أرحل عن الشخص الوحيد الذّي ظلّ معي؟!

أأرحلُ عنه وعني؟ ولكني أبقيه.. مازن صديقي منذ الطفولة، لا أشعر أني أرحل عنه؛ فهو معي حيثما ذهبت، إنه أنا في مكان آخر – يشبهى كثيرًا وأشبه تفاصيله-، إني أرحل ولكنه راحل مع! تبقَى فقط المسافة الكونية.. إنه بداخلي وإلى جواري.

عندما أسمع الموسيقى تكون الأغاني التي استمَعْنا إليها سويًا.. عندما أفعل أي شيء أجد رَأْيَ مازن بداخل عقلي عن كل شيء، عن أتفه الأشياء وعن أعمق ما في الحياة، عن أن جيفارا ثوريّ وليس

شاعرًا كما كنت أظن، وأن الحيوانات ليست بشرًا لأحدّثها مثلما أفعل! وأنه بدون أجهزة الحاسب وكل ذلك من عالمنا، سنحيا كما لا يعتقد هو أنه ينبغي.

وإن سذاجتي تضحكه كثيرًا، وإنْ تحوّلَت أفكاري هذه لعقل كاملٍ لا تكفي طفلة ذات خمس سنوات؛ فيكفيني عقلي الذي لا يُعادل ذكاء قطة، كم أشتاقُكَ مازن بحديثك الذي يبدو لي من السذاجة بأن أضحك أيضًا، وإن كان ال IQ لديّ هو بذكاء قطة؛ فهذا يكفيني -بهذا العالم الأحمق-، ولأحبّ الحمقى أيضًا!

-مازن-

لم يمر على رحيلها يومان وأشعر بالفقد كاملًا، هذا الشعور بجسدي وعقلي وكل ما حولي؛ كأنّ أحد أطرافي قد قُطِع أو أُخِذ من مكانه، إني أشعر بالعجز، جلستُ حتى المساء في منزلي حتى فاضت عيناي بما فيها وبكَيْت.. بكيتُ حبي وخذلاني، وأن رحيلها ليس أن أفقدها، ولكن الأشد هو حديثها اللاذِع الذي لن أنساه، ولن تقوَى ذاكرتي على نسيانه أو السماح لي بمسامحة نفسي، تردّدَت الكلمات بذهني:

ديلارا:

- سيبني أمشي.

مازن:

- بقولّك مش هتمشي.. فاهمة؟

- بقولّك اوعَى يا مازن.. سيب دراعي!

- اهدِي.

- مش هدَى.. فاهم؟

- طب استنّي هاجي معاكِ!

- مش عاوزَه حدّ معايا.. افهم بقى.

- استنّي.. مفيش حِتّة تروحيلها!

- مش فارق معايا.

- يا ديلارا، أنتِ بتهربي! انتِ جبانة.. واجهي.

- دي أنا؟! مازن انتَ اللي جبان.. وياما سكِتّ على حاجات مش قابِلها وسكِتّ، دايمًا بتسكُت.. كل مرة أقولّك خد بحقك يا مازن..

اتكلم.. اعمِل حاجة.. وبتقف وبتمشِي وبتهرب، وجاي دلوقتي تقولّي إني بَهرَب، مش عاوزَه حد معايا.. مش عاوزَاك معايا.. فاااااهم؟!

وأغلقَت الباب بعدما تركتني أُحملِقُ في الفراغ، كل كلمة وكل حرف لا يزال في ذهني، ويعيد نفسه "جبان"، "بتهرب"، "مش عاوزاك معايا".

توقفَت الكلمات فجأة بكسرِي لزجاج النافذة مهشمًا إيّاه كتهشُّم كرامتي السابق، كسرُهَا أوقف الزمن حولي، وجعل قلبي يتوقف وأنا أقف مكاني! حتى عادَت الكلمات مع تيار من الهواء البارد تحوم حولي في الغرفة، وتعلقت بي...

أنا جبان..

-ديلارا-

(اعتذار)

بينما يتحركُ بي القطار من القاهرة للإسكندرية ويعبر حولي المارة، وشعوري الغريب بالتحرّر- لقد تحررت-.. تركتُ كل شيء خلفي؛ أمي وهذا الغريب، والجامعة، ومازن... شعرتُ بالخِفّة، وأن لا شيء ولا أحد يلاحقني، وأنّني صاحبة قراري الخاص، حتى ولو كان حجز تذاكر قطار وتواجدي في فندق ليومين، ولكنه الشعور الحُرّ بأني لا أعتمد على أحد، ولا أنتمي لأحدٍ ما، فلطالما شعرتُ أنّني أنتمِي لمازن، لصداقتنا، لجلوسنا معًا، لأحدِ أنواع المحبة التي لم أستطع أن أنجو من دونها ومن دونه، واليوم أنا لستُ معه، وبمرور القطار يمرّ بعيني أول لقاء منذ طفولة بعيدة، حتى الشجار الأحمق الذي تركته به دون كلمة اعتذار واحدة.

جلسَت بجواري سيدة بالأربعين كما يبدو من ملامحها، ومعها طفل صغير يذكّرُني بمازن عندما رأيته لأول مرة، كنت أقف كما أمرَتْني أمي أنتظر مجيء سيارة أبي التي يرسلها لتأخذني إلى المنزل، أخاف أن أتركَ مكاني حتى لا أضيع.. كنت صغيرة جدًا، وبينما أقفُ وحدي وجدتُه واقفًا أمامي، يبتسم لي، مُعَرِّفًا نفسه لي، ترددتُ قليلًا بالإجابة؛ فهي أول مرة أحادِثُ أحدًا منذ تركت مدرستي السابقة ومجيئنا لهذا الحي، ابتسمت له..

- مازن.

- ديلارا.

لم نتحدث كثيرًا؛ فقد جاءت السيارة وكنت أخشى أن يُعلِمَ السائق أمي أنّي لستُ كما تريد أن أقف في انتظاره؛ فتركت مازن ورحلت.. أتذكر هذه اللحظة جيدًا، وأتذكّر مازن وشجاعته الدائمة بأن يبقَى إلى جواري منذ يومي الأول بالمدرسة الابتدائية، وحتى رحلتُ منذ يومين،

ولكنّني نعتُّه بالجبان! لم أكُن محقة، كنت مستاءة، أحاسب مازنَ على شيء ليس له دخل به، على أخطاءٍ لم يَقُم بها! أردتُ أن أخبره ذلك ولم أفعل!

(قد كُنتَ شجاعًا جدًا دائمًا معي...

وإن كنتَ لا تحمل غير قلب نقي...

لا يقسو على أحدٍ غير نفسك، إلا أنّكَ لستَ جبانًا قط)

ومع سقوط دمعة حارة انتَشَلَها الهواء البارد من على وجهي المتجهّم بعيدًا من نافذة القطار.. تمتمت: آسفة!

-مازن-

إن بعض الكلمات يعبُر بداخلك كعبور المياه ويحيي فيك أوصالك، وبعضها كالطّلقَاتِ تخترقك لتميتك، ولكن كلماتها لم تفعل ذلك؛ كانت كالطلقة الطائشة.. لم تختَرِق لتقتلني، ولكنها أصابتني حيث الألم القابع بداخلي، إنها فقط أشارت لي بوجود علّةٍ ما بي لم أُرِد أن تراها - أخفيها عنها بالتحديد-، ولكني مع الأسف لم أُدرِك أنّها علمَت بوجودها.

كجرحٍ غائر بوجه أحدهم، الجميع يراه، ويعلَمُ هو أن الجميع يراه، ولكن يخبّئُه عن الفتاة التي يحبها، وهي أيضًا تراه وتعلم حقيقته.. حقيقة جبنه، وأن الشجاعة التي أزعمُها أمامها ما هي إلا غطاءً لهذا الجبن الذي طالما وُصِمْتُ به.

وها هي عندما أشارت إليه صرتُ أمشي معلنًا له، أمشي بالشوارع؛ فأراه في كل عيون من نظر لي، كوحش الأوبرا الذي ظلّ لأعوامٍ يخفي هذا التشوه به.. الذي أخفاه جيدًا.. حقيقة وجهه، ويخفِي وجوده عن هذا العالم، وعندما واجهَتْه صار مُعلِنًا له ولقُبْحه.

في قصتي تلك "I'm The Phantom of the Opera"؛ فقد أخفيتُ ديلارا عن الجميع، كانت معي وإلى جواري كما كنت معها، بل لم تُدرِك أني كنتُ لا أريدها أن تبتعد عني، وألّا يعرف بها أحد؛ فهي رائعة.. ناعمة الوجه.. عيناها تلمعان بطفولية لم تفقدْها أبدًا.. شعرُها المموج الذي يعاكس توقعات الطبيعة لفتاة بيضاء ضئيلة الجسد، ولكنها تُخفِيه، ليس لرغبة منها، بل لإرضاء والدتها بأن الفتاة يجب أن يكون شعرها ناعمًا طويلًا؛ فكانت دائمًا تفرده.

كانت جميلة بكل أحوالها –ملاكًا-، عندما يُموّج شعرها تكون كزهرة عباد شمس مشعّة، وتصير بعدها بعُودٍ ممشُوق، وشعر ناعم، كزهرة تيوليب بيضاء.. ناعمة.. خجولة، تداري عنها انطلاقها وحيويتها

وملابس لا تختارها بنفسها.. ألوان بيضاء كثيرة وفاتحة لفتاة كما ينبغي أن تكون، وليس كما تريد هي، ولكنها جميلة دائمًا.

-ديلارا-

لم أعرف إلى أين أذهب، توقف بي القطار، جلست به حتى تركه من حولي.. شعرتُ بانقباض روحي، وأن أنفاسي تعلو وتهبط، لا أستطيع أن أتحرك! ترددتُ أن أنزل من القطار، وفكرتُ بأن أعود مع مَن بدأ في الصعود عائدًا إلى القاهرة، ولكني في لحظة حدثت نفسي:

- اتحرّكي ماتخافيش.

نزلتُ مسرعة كمن يخشَى أن يفوته شيءٌ ما أو موعد مهم، وحملتُ حقيبتي التي لا أعلم حتى الآن ما وضعتُ بها من ملابس: فلَم أهتم، ولَم أكُن أهتم مؤخرًا بكل ما بخزانتي من أشياء؛ فأغلبها لا يشبهني من الداخل! ولا أهتم به حقًا إلا الجيتار.. لَم ولَن أنساه، فقد كنتُ أخفيه جيدًا بعيدًا عن أمي، وهو واحد ممَّن ألجأ إليهم بتلك الحياة، لولاه لكنتُ مِتُّ غمًا وقهرًا.

حملتُ حقيبتي وجيتاري وهرولت لشوارع الإسكندرية هائمة على وجهي، لا اتجاه محدّد، حتَى بدت قطرات تتساقط على وجهي، تمطُر سكونًا ودفئًا، شعرت بالحرية التي أفتقدها دائمًا، الشوارع جميلة ممتلئة زاخمة بالبشر، يمرُّون كإشارة مرور مرة بعيني، ولحظات أخرى كطيف ملون بلا ملامح.

تمشَّيتُ بالشوارع لساعات بفرحَةِ طفل صغير؛ فهي أول مرة لي بالمدينة، حتى أُنهكَت قدماي ولم تعد تحملني، حتى وجدت فندقًا صغيرًا "موتيل" مثل الفنادق، ولكنه أرخص قليلًا، لم أهتم بحالته، نمتُ بملابسي أحتضن جيتاري وحقيبتي ملقاةً عند قدمي، إهمال كامل لا تحتمله أمي.. حرية لم أعهدها من قبل، وتذكرت قبل أن تذهب عيناي في ثبات عميق ملامح أمي.. وغفوت.

-مازن-

لم أستطع أن أغفو هذه الليلة أيضًا..

أين يمكن أن أجدها؟! ماذا تفعل؟! إلى أين قد تذهب؟! جميعها تساؤلات لا أجد لها إجابة! توقّفَ عقلي وأصبتُ بحالة من التجمد، خاصّةً أمامها.. أمام أم ديلارا وهي تستجديني أن أبحث عنها، أو إلى أين يمكن أن تكون ابنتها ذهبت؟! ولِمَ رحلَت؟ ولَم أستطع أن أمنعها! وقفتُ كطالب فاشل علِمَ والداه توًّا أنه رسب، ولا يعرف إلى أين يذهب من تساؤلاتهم؟!

أم ديلارا:

- بنتي فين يا مازن؟ يا بنى هي مش أختك وصاحبتك؟! ازّاي كِدَه.. طب دور عليها! طب انت مخبّي عليّا إنها في حِتّة انت عارفها؟!

لم أكن أجيبها، كنت أشعرُ أن جميع أسئلتها هي اتهامات، ولا أعرف غير إجابة واحدة لها جميعًا... لا أعرف، إجابة واحدة تبدو من السخافة كتعبير أحدهم أنّه يُخرِج لكَ لسانه بأنك أحمق! وأنا الأحمق!

لا أعرف.. وبداخلي أنا أحمق وتركتُها ترحل، وكذلك تركتُ والدة ديلارا مع أمي وأنا أهبط على درجات السلم كمن يهرب من مُطَارِد لا يريد أن يمسك به، وبدأت أبحث عنها بعشوائية شديدة بالأماكن التي اعتدنا أن نكون بها معًا، وأعلم جيدًا بداخلي أنّها لن تكون بها، ولكني أخذتُ أبحث وأنظر لوجوه العابرين؛ لعلها تكون واحدة منهم.

وبينما أبحثُ توقفتُ بغته كأنما اكتشفتُ اكتشافًا لم يأتِ بعقلي تمامًا، وحدّثتُ صديقتها عاليَة، وبدأت في الرواية الخاصة بي عن رحيل ديلارا كأنما وجدتُ قشة تنقذني من هذا الغرق!

-ديلارا-

صحوتُ متجمدةً من البرد، كنتُ قد غفوتُ كمغمًى عليه.. لا أريد شيئًا غير أن أفيق وبعض القهوة، رأسي يؤلمني كأنما يتحطّم داخليًا من شدة الصداع، ولم أجد أحدًا معي بالغرفة بعد، شعرت بالطمأنينة، وعلى الأقل لم أنَم هذه الليلة مع أحد بهذا المكان الجديد، ترددتُ في الذهاب إلى حمام "الموتيل"؛ فهو مشترك خارج الغرفة، ولكن هذا المكان هو الأفضل لميزانيتي الحالية، مشيتُ كمُعاقَبَة أتذكر حياتي السابقة، وأن كل شيء كان كما يجب بانتظاري كأميرة..

- أفيقِي أنتِ لست أميرة "Im not a princess".

وضحكت لنفسي:

- "لا، أنا فرفورة".

بعد هذا "الشاور" بحثتُ عن أداة فرد الشعر لم أجدها! تركتُها ولم أنتبه؛ فتركت شعري الكثيف ليجفّ، وشعرت لأول مرة أنها انطلاقتي الأولى، ابتهجتُ قليلًا.. "الكيرلي" يليق بي، طالما كنتُ مثل عروس "باربي" المنمقة في الخروج من المنزل، ولكني الآن أشبُه نفسي وغجريّتي، وأخيرًا وجدت قهوة بأحد الكافيهات على البحر، رأسي أُعِيدَ اتزانُه من جديد، جلست ساعات طويلة أمام البحر منذ صباح اليوم لا أفكر بشيء أو أحد... متجهّمَة تمامًا كأنما فقدت ذاكرتي.. شعور يتغلغل بداخلي أنني لم أعد وحيدة، أشعر أنّي في هذا الكون مالكة لي.. لنفسي، لا أحد يملك قراري، وليس عليّ إرضاء أحد، فكرت بمازن وبمَا قد فعله منذ رحيلي، وكيف هو حاله؟! أخشَى أن أفتح هاتفي وأخاطبه... الحنين إليه يُحِيطُني، والعناد بأن أبقى وحْدِي مكتفيَة بذاتي يزداد بداخلي؛ لهذا عدت إلى "الموتيل" وأنا بقرَارَةِ نَفسِي أن أعود، أن أحمل أشيائي وأعود لمازن، ولكنها مجرد ساعات وبدلًا عن

ذلك اتجهتُ إلى إحدى الحَفَلات الصاخبة القريبة؛ فبعض الموسيقى يأخذك من عالمك إلَى عالم آخر ينسيك ما فعله العالم بك، ويشعرك أنك حي حقًا.

أخذتُ جيتاري معي ولا أعرف لِمَ؟! ربما خشيتُ أن يُسرَقَ من هذا المكان.

- يمكن أن أحيا بدون كل شيء، إلا رفيقي "الجيتار هذا ومازن.

كما كنت أقول لصديقتي عاليَة دائمًا...

ديلارا:

- عارفَه يا عالية.. الجيتار اللي مخبّياه من ماما دا لو مرة اكتشفتُه هتعمل فيّا إيه؟!

عالية:

- اممم طنط! أعتقد إنّها مش هتصدق أصلًا إن عندك جيتار!

- هههههه أفتكِر كدا، وممكن ساعتها أقول لها إنّه بتاعِك.

- فكرَة برضُه، مع إني أفشل من إني أمسكُه، ولا أقولّك.. ما تجيبي أجرب كِدَا يا بنتي أعزِف عليه!

- اوعِي.. انتِي اتجنّنتِي.. جيتاري دا محدش يلمسُه غيري.. دا رفيقي.

- رفيقك؟! إمال مازن دا إيه؟!

- مازن دا رفيقي الأولاني.

- أيوَه صح، صديق طفولة وكده.

- بالظّبط كده، فهمتِي بقى؟ أنا ما أقدرش أعيش من غير اتنين.. مازن والجيتار.

- إيه ده؟! طب وأنا يا "زفتة" انتِي؟!

- أقدَر أعيش من غيرِك عادي!

- بقَى كدا... طيب مش هخرُج معاكِي وخليكِي مع جيتارك، ويلّا بقى، يلّا كمان من عربيتي، مش وصلتك؟!

- استنّي يا بنتي يخربّيتك، دا انتِي صاحبتي الوحيدة ماتهونيش عليّا.. وبعدين استنّي أشوف ماما فوق ولا لأ؛ عشان أسيب الجيتار عند مازن.

- تاني انتِي وجيتارِك ومازن؟!

- معلش والله.. بحبك يا "هبلة" انتِي والله.

- انتِي بس صعبتي علي! يلّا اخلصِي قبل ما أزُوقّك من العربية أهو! كلمي أمك.

- أمك! مفيش أي احترام خالص!

- انجزي بقى هتأخّر، وانتِي عارفة أمي زي طنط بالظبط.. تحب المواعيد زي عينها.. ماتتأخّريش يا عاليَة وإلّا هاخد العربية، وانتِي عارفَه بقى عربيتي دي زي جيتارك ده.

- يعني جايّه تقولي لي هتتأخّري دلوقتِي.. أهو خلاص ردّت...

كم أفتقد عاليَة وطريقتها في معاملة الأمور وسخريتها الكثيرة من كل شيء.. صديقة، وكما يُقال "بنت مصرية جدعة".. أحبها كثيرًا، وهي الوحيدة التي تعلَم بوجودي بالإسكندرية، أرجو أن لا تخبر أحدًا بمكاني!

-مازن-

تردد!
إجابات مضللة!

هكذا كان شعوري عندما حادثتُ عاليَة، كانت تجيد إخفاء الحقيقة، وأنها لا تعرف إلى أين قد تكون ذهبت ديلارا؟ ولكني أستشْعِر من هذه النبرة في صوتها وتغيّر بحّتِه المميزة لديها أنها تعرف! هي تعرف مكان ديلارا!

ولكن عليّ أن أجعلها تثق بي لتخبرني، أو أن أطمئِنّ فقط عليها! ولكن لا، بداخلي يحترق، إنها تعرف ولا تريد إخباري بذلك! الأكيد أن ديلارا هي من طلبَت منها ألا تخبرني! كيف يحدث هذا؟! هل ديلارا تهرب مني الآن؟! تتجاهلُنِي عمدًا؟! ولكن ماذا فعلتُ أنا؟!

حسنًا.. لقد تجاهلتُها كثيرًا هذه الفترة، لم أكُن أجيبُ على رسائلها، أراها وتكون فقط "Seen" هي إجابتي..

(إني أعرف حقًا أنّكِ تريدين التحدث إليّ، ومع كل ذلك تركتُ لك الحيرة حتى زادت العقدة واختل التوازن بين رغبتي بك وبعدي عنك!)

في بعض الأوقات أشعرُ أنها تشعر بي، أو تعلم ما يجول بخاطري، وأستشعر ذلك في كثير من الأوقات، هذا الشعور الغريب أن الآخر بداخلك، أو أنك بداخله.. تكرر هذا معها من قبل، ولكني اعتقدتُ يومها أنه لأنّنا أصدقاء طفولة، وكان يحدث ذلك من صغرنا، وربما تولّدَ هذا الشعور لميلادنا معًا في نفس الخط الزمني بفارق يوم واحد كأن ذلك يخبرنا أننا معًا منذ البداية.. نفس العام، نفس الشهر، فقط أسبقها بيوم واحد.

أشعر أحيانًا أنها تقرأ أفكاري، بل تُجِيب عن بعض ما بي عندما يحتدّ بيننا النقاش، ولكني أربكها ولا أترك لها العنان بأن تتجول

برأسي وتعبث بأفكاري، وبينما أفتعِلُ دور الأحمق بمعلومات عديدة وأفكار لا تجري بذهني حقًا؛ حتى لا تعبث بي، كانت بالفعل عابثة بمشاعري رغمًا عني، أعشقها.. وتلمع عيناي لرؤيتها، وأسعد مرّة وتتوقف سعادتي مرات بفعلها دون أسباب أجيد قولها عندما تسألني ماذا بي؟!

خاصة عندما يقترب منها أحد ما طامحًا في نيل رضاها أو مصادقتها؛ فيُفتّت اتزاني ويخرج الشك بأنيابه ليبدأ في نهش داخلي بتلذّذ غريب! لم أحتمل هذا الأمر هذه المرة؛ ولهذا هربتُ منها وعنها، حتى عادت هي بي منتصرة عليّ؛ فأجد نفسي أمام باب شقتها لا أستطيع أن أبتعد، وأتعلّل بانشغالي وأن كلية الهندسة صعبة، وأن المشروعات تأخذ وقتًا ومجهودًا ذهنيًا كبيرًا، كانت حبكتي جيّدة وإن كانت جزءًا من الحقيقة، ولكنها لم تكن أكملها، ولكنه عنادِي وكبريائي، وها أنا أعيد الشك لينهش ضحيته العنيدة! كلما ابتعدتُ عنه جاء ليعلن وجوده وسلطته علي؛ إلى أين ذهبت؟! عقلي يثور ولا أجد إجابة!

-ديلارا-

أنوار الحفلة بعيني أخذَت من لمعة دموعي، كنت أبكي لسماع الموسيقى وأشعر أني أتحرر من قيدٍ ظلّ عالقًا برقبتي؛ فأبكي ضعفي، حتى شعرتُ أن عليّ أن أبقى قوية؛ فبدأت بالصياح مع الجمهور الهائج مع موسيقى إحدى فرقِ المحببة "مسار إجباري" وبدأت أقفز معهم.. لم أعُد أفكر بشيء ولا في أحد، فقط أستمتع وأشعر بالحياة، وأردّد معهم أغنياتهم...

(يا عم شوط الهم لا تهتم.. بلاش سَمَاك بالغيم تعكّر..)

(رشرش في سكة شروقنا سكّر) (وباب بَرَاحك بلاش تسنكَر)

(يا بو غنوة لينا في العتمة نور)

مع الحفلة لم أشعر بوجودي، كنت أذوب في ألحان وعزف الجيتار والطبلة، ولكن يبدو أن أحدهم رآني وشعر بي، وجذبه لي فضوله.

عيناه ظلّت عالقة بي! ويبدو أن شَعْرِي المموّج -الذي لم أعتده- مع قفزي الشديد كان مبهجًا جدًا لي، ومثيرًا لدهشة الجنس الآخر، حتى اقترب منّي على الرغم من انفعالي واعتقادي أني سأنفرُ منه، لم أستطع أن أفعل ذلك، وجدته ينظر لي بعينين زرقاوين كالبحر، لم أنطِق حرفًا، فقط نظرتُ إليه كمركبٍ غرقَت ببحر من الزرقة ولا تعرف وسيلة لانتشالها، حتى انتشلني بـ

- "Hey"..

ترددتُ في إجابته!

ديلارا:

- أيوه وبعدين؟!

- تصدقي.. دا أغرب رد ممكن أي حد يسمعه...

- فِكرَك كده؟

- والله مش تطفل، بس حبيت أسألِك على حاجة، ممكن؟!
- دا بجد؟!
- اممم واضح إن كل ردودِك دي هتبسطني قوي!
- بص.. عشان بسمعك بالعافية، وبعدين أنا جايّه للحفلة.
- طيب هَستنّى!

صمتَ، وأكملت قفزي وتنطُّطِي، ولكني كنت أشعر بالإحراج والسعادة معًا! أحدهم يشاهدني ويضحك على طفولتي، وأنا أيضًا أنظر إليه، ولكني أقاوم وَسَامَتَه الشديدة.. يجب أن أتجاهل ذلك! وأكملتُ مع مسار أغانيهم التي أحبها.

وتُقَع وتقوم، وتقُوم وتُقَع.. في الفرح دموع، ودموع يا وَجَع

مين قال مقْسُوم؟! كدَّاب يا وَدَع، انت اللي في إيدَك طَرْف الخيط

في الزحمة وشوش جايَّه وبِتْروح، خايف على قلبي يبَات مجرُوح

ضحكَة من الحلوة ترُدّ الروح، تفتح شبابيك وبِيبَان البيت

أنا صابني الحزن ما قولتِش ليه؟ وعانِدْني الحُزن قِدِرْت عليه

ويا بحر حلِفْت إني أعدِّيه، ويفوت العمر لو استنِّيت

بعد انتهاء الحفلة لم أنتظر، وتحركتُ بين الجموع الكثيرة لخارج الحديقة المُقَام بها الحفل، وبينما أمشي شعرتُ أنه خلفي، تردّدتُ في النظر إلى الوراء، ولكني شعرتُ أنه يجب أن أتماسك وأن أواجهه!

نظرتُ خلفي وجدته مبتسمًا وينظر لِي! بصوتٍ قوي حدثته:

- إيه جَوّ "الشقط" ده؟!

لم يجِبْني، ما زال حولي الكثير من الناس.. أشعَرني وجودهم بالأمان، ولكني أخشَى أن أُكمِل طريقي ويلاحقني، استطعت أن أهرب منه في الخروج من الحفلة، ووسَط الناس، ولكنّه عَثَر عليّ وتَبِعَني! الْتفَتُّ إليه بكلمات أخرى رافضة:

- أيوه يعني عاوز إيه انتَ؟!

- انتِي ماستَنَّتْنِيش ليه؟!

قالها بمنتهى الجدية والحدة معًا كأني أعرفه وتركته: فصمتُّ مندهشة!

- مش قولتِلك هستناكي! مشيتِي ليه بقى وخلتيني أدوّر عليكِ زي الأهبل، ومش كدا وبس، وجرجَرْت باقي أصحابي كمان من الحفلة كلها!

- إيه! هو فيه إيه بالظبط؟! انتَ وصحابك!

علامات الخوف والرعب التي ارتسمَت على وجهي، وتسمّرت قدماي بالأرض، أكاد أن أفقد وعيي! أين مازن؟! لِمَ لَيْس معي؟! بحثتُ عنه حولي ولم أجده!

ولكن يبدو أن رعبي هذا جعل الوسيم يعيد كلامه لي!

- لا استني! انتِي فهمتِي إيه؟! ما أقصدش والله؟! أنا محترم والله... واسمي يوسف.

كنتُ أشعر أنني يجب أن أهرب، ولكني لم أفعل! تسمّرتُ مكاني، ويبدو أنني كنت بحالة صدمة لم أعهدها من قبل، بلد غريب عني، أشخاص لا أعرفهم، أحدُهم يلاحقني ولا أعرفه.. تجمّدتُ بلحظة!

يوسف:

- واضح إني خوّفتك.. آسف والله، طب بُصّي.. لو عاوزاني أمشي همشي! بس فاكرة إنّي كنت هسألِك على حاجة! فاكرة؟ الجيتار دا بتاعِك.. صح؟!

صوتُه كان قوياً واثقاً، وكلمة الجيتار أخرجتني من حالة تجمدي مع بعض من الرهبة محاولة مني أن أطمئِن! ما زال هناك بعض الأشخاص يمرُّون حولي! إن شعرتُ بالخطر سأصرخ! أجبته بحدة شديدة:

- آه، دا الجيتار بتاعي!

- طيب بصي.. أنا عندي فرقة والله وأنا بغنّي فيها! وكان ناقصنا حد بيعرف يعزف على الجيتار عشان صاحبنا هيسافر الفترة دي ومحتاجين نتمرن... فهمتِي بقى؟!

- فرقة إيه؟!

- لا دي عاوزَه قَعْدة! مش بقولّك جرجرت صحابي من الحفلة، وهمّا دلوقتي راحوا ياكلوا.. ما هو لو كنتِي صبرتي كنتي شوفتيهم وعرّفتِك عليهم! ها تتعرفي عليهم؟ وتعرفيني عليكِي انتِي كمان.. اسمك مثلًا؟!

- أنا اسمي ديلارا.

وعلى الرغم من شعوري المتردّد، وأني ما زلتُ لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل! ولكنه التمرد عليّ وأن أذهب معه، شعوري المتناقض مع أفعالي!

ولكنها التجربة...

-مازن-

توقّفَت عاليَة أمامي مندهشة تحاول التراجع أو الهروب كما استشعرت من عينيها، ابتسمتُ لأطمئنها:

- ازّيّك يا عاليَة؟

- الحمد لله.. ازّيّك يا مازن؟

- إيه دا! إيه اللي جابك عندنا الكلية؟! مش كليتَك هندسة باين؟!

- آه.. ما هو أنا جاي عشان أتكلّم معاكِي، ها ينفع نروح نقعد في أي حتة؟

- طب تمام! عندي محاضرة، هي "section" صغير مش هطوّل، هي ساعة ونص بالكتير.

- طيب هايل، أستناكِي فين؟

- فيه كَافِيه قريّب من هنا ممكن تستناني فيه اسمه "Space"، آخر الشارع اللي قدامنا ده.

- تمام هستناكِي.

اتجهتُ إلى الكافيه محاولًا أن أكون هادئًا قدر المستطاع، وأن أستطيع أن أعرف من عاليَة إلى أين ذهبت ديلارا؟ عليّ أن أبتلع انفعالي وشكوكي القاتلة والفاتكة بي، وأكونُ مسالمًا جدًا... بسيطًا، وليس فقط بشكلٍ مفتعَل، حتّى نبرات صوتي يجب أن تكون هادئة!

بعد حوالي ساعتين إلا دقائق أتَت عاليَة، كانت تبدو مفتَعلَة الهدوء، لستُ وحدي إذًا! ربما عليّ أن أستغل هذه النقطة لصالحي وأن ألعبَ على أوتارها، لن أسمح لها بالكذب عليّ مجددًا، إن كارتي هو الرابح! لا لعبة إلا وأنا فائز بما قد أجنِيه من حديث مع عاليَة.

عاليا:

- مازن، إيه أخبارك؟!

- تمام.. بس مش تمام قوي!

- آه.. كنت عاوزني في إيه؟

- ديلارا.. انتِي عارفة هي سافرت فين؟ وأكيد مش هَضغَط عليكي، بس لازم أطمّن والدتها!

- انتَ عارف إنها سافرت، بس والله هي ما قالتليش رايحَه فين!

أكدّت لي عاليَة شكُوكي بسفر ديلارا، ما زلتُ أشعر بها ولم أفقِد هذا الرابط الروحاني كما كانت تخبرني ديلارا عنه... هي سافَرَت!

ولكن أحد خيوط اللعبة مع عاليَة، ومن خلالها أستطيع أن أصل إلى شيء ما.

مازن:

- طب يا عاليَة.. انتِي عارفَه إنّ تليفونها مقفول؟

- هو مقفول معايا، وماكلّمتهاش من فترة والله، حتى عندنا أبحاث كتيرة في "semester" دا، وهي كِدَه بتهزر والله يا مازن... صدقني لو أعرف مكانها هاقولّك.

- أوك يا عاليَة.. انتي عارفَه على الأقل هي سافرت فين، وعشان صاحبتك واللي بتقولي ماينفعش دَه ابقِي قوليلي، بس همّا يومين يا عاليَة، هستنّاكي خلال اليومين دول تقولِيلِي سافرت فين؟ ولمين؟!

لم أستطع أن أخفيَ قلقي وشكوكي الأخيرة مع عاليَة، ولكن بعض الرهبة والخوف يمكن أن يوصِلَك لما تريده.

وقد يكون قبل أن ينتهي اليومان، أعلم أن عاليَة سوف تتصل بي وتخبرني ما تعلمه حقًا، تكرار الانفعال في صوتها وتعبيرات جسدها لن تستطيعَ أن تخفي عني ما تعرفه أكثر من أيام، عليّ أنا فقط الصبر، أو ادعائه إن تطلب ذلك مني.

-ديلارا-

كل ما حولي يتّسع.. هكذا شعرتُ أنني بداخل شعور مفعَم بالحياة، التي اعتقدت أنها ستضيق بي من أيام، بعد توالِي نوبات الغضب المتوالية مع أمي حتى لم أعُد أتحمّل، وشجاري مع الأحب إلى قلبي مازن، وزيادة شعوري بأن الرحيل هو ملاذي الأخير.

إلّا أني مفعمة بشعور يحييني من جديد.. أشتاق إليهم كثيرًا، ولكني أيضًا أشتاق إلى نفسي! تلك الفتاة الحالمة التي لم تعُد ترى شيئًا، أو حياةً تخصها معهم، أريد فقط أن أتعرف على ذاتي.. أن أعرف ماذا أريد؟! وماذا أحب؟!

أن أعيد كل شيء حولي إلى أصله، وأن أكون بلا قراراتٍ تُؤخَذ عني، أو من يفعل من أجلي كل شيء، سواء أردته أو لم أرده!

أخذني يوسف وجلستُ مع أصدقائه بأحد الكافِيهات على البحر، جلستُ بدائرتهم الصغيرة مبتهجة، على الرغم من ملامح وجهي القلقة، ورغبة يوسف الدائمة في أن يطمئنَنِي بنظراته وابتسامته اللطيفة.

لم أتحدّث كثيرًا، لدرجة أن يوسف ظل ينظر لي من آن لآخر، أصدقاؤه مرحون ذَوُو أسلوب شرقي غربي لذيذ، لقد استمتعتُ بصحبتِهم ومزاحِهم غير التقليدي، أما يوسف فبعد هذه الجلسة أخذَنِي لأعود إلى "الموتيل"؛ فلم أشعُر بالوقت، وتوتّرتُ كثيرًا عندما وجدتُ الساعة شارفَت الواحدة صباحًا.

لا أعرف من أخشى؟! فأنا أعود إلى مكان لا يعرفِني فيه أحد، ولكني شعرتُ أنّ أمي ستعرف، بل وربما تأتي إلى قلقةً من إصابتي بمكروه! أمي تخاف عليّ كثيرًا وتحبني للغاية.. أفتقدها جدًا، وأفتقد مازن.. صديقي، بداخلِي أشعرُ به يبحث عنّي ولا يجد ما يريده، لا

أستطيع أن أعود إلى أحضانهم سريعًا دون أن أجد ضالتي.. أن أجدني! وأُحبُّني كما يفعلون!

أريدُ أن أحب نفسي..

أريد أن أحب نفسي كما هي.. كما آراني، وليس كما يرونني!

أرسلتُ إليه رسالة من هاتفي وأغلقته سريعًا..

(ماتدوّرش عليّا يا مازن)

لم أعرف لمَ بعثت إليه رسالتي تلك؟! ولكنّي بعدها قمتُ بتغيير الرقم؛ حتى لا أعود لمحادثته أو مهاتفة أمي... لن أقوَى على ذلك!

-مازن-

كلّما أردت أن أستجمع قواي انهارَت تمامًا تاركة لي ضعفي!

وكلّما قاتلتُ أشباحي أعود للخلف مصابًا بالإحباط.

وأعود للمرة الأولى التي خُذِلتُ بها ولم أحصل على ما أريد، وها أنا ثانية بلا شيء مثقَلٌ للغاية، لا تحملني قدماي، لا أريد أن أواجه شيئًا ولا شخصًا، أغلق ذاتِي عليّ، لا أريد أن أسمع صوت أفكاري وشكوكي ومخاوفي، إني أنهار داخليًا، وأقف وحدي لا أعلم إلى أين قد أذهب؟ توقّفَ عقلي تمامًا.

رسالتها تلك جعلَت مني اثنَين يتعاركان مع بعضهما البعض؛ أحدهما يعشقها حتى النخاع؛ فاستوطَنَت بكل ذرات جسده وعقله وأفكاره، والآخر يرفض أنها تركته هكذا دون مبرّر كافٍ؛ ليبحث عنها، ولكنه يبحث! وهي الآن تكفّ عنه رغبته ليجدها، كأنما تراقبُه من بعيد! وتراه جالسةً في غرفة مظلمة باردة ليس بها مفتاح، وهو يلهث بحثًا عن الخلاص ولا يراها؛ يتحسّس كلّ شبر بهذا المستودع المظلم ويخشى عليها، تقتلُه أفكاره، يصرخ عليها تستجيب، وهي فقط تعبث به؛ فيعود يتخبّط بالجدران، وهي من معه المفتاح ولا تستجيب له ولِمَا يشعر به من ضياع!

تخلّصتُ من رسالتها تلك، ولكني لم أمحُها! وضعتُها في أرشيف رسائلي فقط بدافع من الغضب، وخلعتُ عنّي ملابسي تحت دشٍّ بارد لأهدئَ حرارة جسدي الملتهب من وقع أفكاري الحارة، ولا أُبالِي إن مرضتُ أو تحسّنتُ، لا أبالي على الإطلاق.

غفوتُ تلك الليلة هادئًا جدًا، لا راحة تكفِي المنهك، ولا أفضَل للميت من قبره؛ ليستسلم ويكفّ عن طلب الحياة وأنفاسها القاتلة بداخله؛ فيُريد أن تتوقّف أنفاسه؛ فيعلُو ضجيجها بداخل صدره، الألم يحاصرني.. ولا أتغلب عليه؛ حبًا يقتلني وجسدًا يتهاوَى، الربو حين أنساه يأتِي بغتة كاللص؛ ليصفعني على وجهي، وضعتُ البخّاخة في فمي، وتوقفَت يداي وجسدِي عن الرجفة وغفوتُ.

-ديلارا-

صحوتُ فزعة.. أنفاسي متقطّعة يختنق صدري، ردّدتُ اسم مازن وتذكرتُ مرضَه المزمن، وكيف يشعر عندما تذهب أنفاسه وأمسك يديه! أشعر أنه أنا ولا أجد يديه لتمسك بي، وضعت يدي على صدري، وبكيت مردّدةً أسفي مع دموعي المنهمرة..

(آسفة والله يا مازن)

(آسفة.. حقّك عليّا)

وعدتُ إلى نومي القلق وحلمتُ به.. كان هادئًا ينظر إلى ولا يحدّثني، ولا يبحث عني! فقط ينظر إليّ. وعندما أردتُ أن أقترب منه رحل، لم أعد للنوم مرة أخرى بعد هذا الحلم، انقبضَت أنفاسي كثيرًا وعكفتُ أبكي حتى أُغشِيَ عليّ.

صحوتُ وحملت حقيبتي وجيتاري ولملمت أشيائي وهرولت إلى الشوارع: أبكي..

انتظرتُ بمحطة القطار لكي أعود أدراجي إلى القاهرة، ولكني تذكرت ما حدث مع أمي، وكيف استطاعت أن تخفي عني ما يخصها بهذا الشكل؟! وتكرار محاولاتي لمعرفة كيف استطاعَت أن تخفيَ عني هذا الأمر، ولم أعد أعرف معها الحقيقة، والأكثر من ذلك.. الثقة، لا أستطيع أن أعود باكية إلى أحضان أمي.. ولا إلى مازن، لقد جرحتُه كثيرًا برفضي حبه لي، ولا أعرف إن كنتُ أحبه حقًا أم لا أريد أن أخسره، أخشى فقدانه ولا أريد أن تسوء الأمور بيننا؛ فهو صديقي، فهل عندما نصبح حبيبَيْن سيكون كما هو معي؟! وإن لم نستطِع؛ سأخسر الاثنين.. حبيبي وصديقي معًا!

لم أستطع أن أسافر، وعدتُ إلى "الموتيل" جامدةً كالأموات، أريد أن تنتهي الحياة.. أن تنطفئ هكذا كما تنطفئ الأنوار جميعها بهذا المكان، وأن أنام.. أريد فقط أن أنام!

-مازن-

ساعات تمر بعيني مرور الكرام..

فقد مرَّت ليالي ثقالٌ عليّ، لم أعتَد غيابها منذ زمن بعيد، ولم أعتَدْ أن ترحل عني الأقرب إلى نفسي، بل والأقرب إلى روحي.

برحِيلها هذا أكادُ أن أُجَنّ.. أن أفقدَ قدرتي على قبول الحياة؛ فهي الحياة بالنسبة لي، لم أدرك هذا الأمر إلا مؤخرًا جدًا، أختنقُ في هذا المكان.. منزلي، وهي كانت ملجأي ومتنفسّي، لقد تحملتُ الصراع الدائم والمستمر بهذا المنزل، وإرادة أمي أن تُثْبتَ لأبي أنّها أحسنت تربيتي، وأني لستُ كباقي أبنائه الآخرين، وأن الْتِحَاقي بكلية الهندسة انصياعًا لرغبته هو وليس لرغبتي، لم يكُن لي إرادة في أي شيء إلا بضع ساعات أهرب فيها إلى فتاتي، والتي شاء القدر أن يجمعنا سويًا في نفس المدرسة، والأكثر إرباكًا تجاوُرُنا في نفس الشارع لا يفصلنا إلا بضع عمارات، كان لنا ملعبًا وممرًا إلى عالمنا الخاص بشارع منزِلنا المُشَجّر، كنت أراه دائمًا أجمل شوارع المعادي، بل أجمل الشوارع على الإطلاق.

عندما تعطّلَت السيارة التي تقِل ديلارا إلى منزلها للمرة الأولى اضطرَّت إلى ركوب "باص" المدرسة الذي كنتُ فيه.. ورأيتها، ومنذ هذا اليوم ونحن نعود سويًا إلى المنزل، ونذهب معًا كل يوم صباحًا مع أحاديث كثيرة نتذكّرها جيدًا؛ فقد حُفِرَت في ذاكرة بيضاء نقيّة لا يمحوها أثر السنين، لا ننساها، وإن اعتقدنا أننا نسيناها تأتي إلينا في تفاصيل حياتنا الصغيرة؛ فلا تتركنا ذكريات الطفولة وإن تركْنا الزمَنَ يحوّلنا إلى نسخنا الجديدة؛ فهي رفيقة لنا وتبقى بقلوبنا ما حيينا، وربما تصنع منا ما نؤُول إليه فيما بعد!

تعدّدَت محاولات اتصالي بعاليَة، ولكنها لم تعطِي لي الأمل كما أردتُ في معرفة إلى أين سافَرَت محبوبتي؟ ولِمَ لَمْ تعد إلى الآن؟! فالأيام تمرّ وأزدَادُ أنا جنونًا معها.. وإنهَاكًا، كما أن والدتَها لم تتحمّل الأمر

كثيرًا وسافرَت لدى أحد أقاربهم؛ لتبحث عن أمل لإيجاد ابنتها وعودة الحياة إليها، كما كانت مشرقة بضوء شمسها ديلارا، وهو أحد معاني اسمها، ولتعودَ هَالَتِي البيضاء؛ لتنير دربِي بعد كل هذه العثرة، بدلًا من أن تترك لي الحيرة والارتباك معًا.

-ديلارا-

(ماذا فعلتُ لتتجاهلني بمثل هذا القدر؟!
لأجدك دائمًا تهرب مني!)

كنتَ تفعل بي هذا عامدًا، ولكني فجأة دون أن أقطعَ تواصُلِي معك أرسلتُها إليك في رسالتي؛ لأذكّرَك بما كنت تفعل بي عندما احتَجْتُ إليك في أشد أوقاتي.. تركْتَني!

هل يترك المحبُّ محبوبه؟! وهل تتركني بعدما وجَدْنا بعضنا بعضًا كما كنت تقول لي! أم أنّكَ لم تجد لسؤالي هذا المبرّر الكافي!

قبل صراعي مع أمي وتكرار طلب مازن لي أن أفكر في الزواج، لم أُرِدْ ذلك... لقد كنت خائفة جدًا، ولم أعرِف لِمَ؟! ولكني كنتُ أشعر بانسلال الحياة من بين يديّ، وأن حريتي التي أردتُها تعبث بالهواء حولي، وتنظر لي شامتة بي وتقول لي يا حمقاء!

وأنا كالعصفور الأبيض بداخل القفص؛ أتطلع لها في شوقٍ شديد؛ لأجدكَ معي بداخل قفصي تعرِض عليّ أن نكمل حياتنا بهذا القفص؛ فتجمدتُ مكاني، أريدك.. ولكني أريدها قبلًا.. أريد جناحاي.. أريدهما أن يحلّقا.

أريد أن أرى الشمس قريبة من عينيّ، وأن تلمس الريح أجنحتي، وأن يخفق قلبي حبًا وشوقًا وحرية، ولهذا لم أُجِبْك... وترددتُ، وظهر تصرفي لكَ بأني لا أريدك؛ فتركتَنِي، آلَمُنِي أن أحتاجَك مع مفاجأتي بزواج أمي وإخفائِها هذا الأمر الجلل عني، وأنّي أمرّ بصراع من فقد الثقة في كل ما يحيطني، وبحثْتُ عنك.. ولم أجدك، هاتفتُك فتجاهلتني، طلبتُ لقاءَك مرارًا فلم تكن بجواري؛ حتى فاض قلبي منك.. هكذا فعلتَ.

-مازن-

(ماذا فعلتُ لتتجاهلَنِي بمثل هذا القدر؟!
لأجدكَ دائمًا تهرب مني!)

تكرّرَ سؤالها بذهني... وأعدتُ قراءة رسالتها السابقة لي.

لم أُرِد ان أفعل ذلك، ولكنه الكبرياء جعلني بهذه الحماقة، كنتُ أراكِ أمامي ولا أستطيع أن أبوحَ أكثر من ذلك، أراكِ جميلة.. رائعة، وأريدُكِ.. أريد أن أكونَ بالقرب منكِ، ولكنك مع كل حبي لك رفضتِني، لم تكن الكلمات هي السبب، بل كنتِ أنتِ بتوتّرِكِ وفقدانكِ لأجمل ما كان بيننا، لصداقتنا عبر هذه السنوات.

وجدتُني أخسر صديقتي وحبيبتي أيضًا، حتى عاد الخوف يمتلك قلبي مثلما حدث يوم أن وقفتُ وجهًا لوجه مع أبي...

مازن:

- أنا مش عاوزها!

- انت أصلًا مالكش في إنك تقول تعوز إيه وماتعوزش إيه! فاهم؟! خلص الحوار.

- يا بابا أنا مش عاوز هندسة.

- انت عاوز إيه؟ ها.. قول!

- عاوز أدخل فنون جميلة.

- وتِبقَى إيه؟! رسام؟! عاطل؟! ولا حتّة مدرس؟! انت عاوز تهزأني قُدّام الناس؟

ثم مشيرًا لأمي مستهزأً بي:

- هو دا ابنك اللي قولتيلي بيفهِم وفالح لمستقبله!

أمي:

- هو فاهم بس بهزر!

مازن:

- أنا مابهزّرش.. أنا مش عاوز هندسة، افهموني بقى.. كفاااية!

أبي:

- انت كمان بتعلّي صوتك علينا! انتهى الكلام، وهي دي كليتك اللي هتدخلها.

وقبل أن أنهي كلماتي هذه مع أبي حدثَ المشهد الذي كاد أن يوقف قلبي تمامًا، ولكن الذي توقّف قلب أبي.. تهاوى على الأرض، أسرعت أنا وأمي نحوه، لم يكن هذا الجدال جيدًا لمريض قلب وسكر، وهكذا اضطرب قلبه، وبلحظة انتهى عمره وحلمي معه، وكلّما اشتد الصراع على ما أحب وأريد ازداد اضطراب قلبي، ودخلت كلية الهندسة كما أراد وآسِفًا لأمي وقهرًا لي! وتحملتُ المسئولية عني وعن أمي وعن إخوتي الأصغر سنًا من زوجة أبي؛ ليكون الحمل كاملًا لأفقد حريتي ورغبتي لأي شيء، إلا هي.. الحلم الأجمل والأمنية الأكثر، وها هي صارت الحلم الأبعد، وأكثر أمنياتي قربًا وبُعدًا! واستحالت أمنياتي جميعها.

-ديلارا-

بينما أعبثُ بهاتفي قراءةً لرسائلنا معًا وجدتُ أغنية أحببتها معكَ، تم تشغيلها تلقائيًا حتى اضطربَ قلبي حينها، أغنية أحببتُ لعبها على جيتاري

(Ed Sheeran Photograph).

loving can hurt sometimes،Loving can hurt

But it's the only thing that I know!!

you know it can،When it gets hard

get hard sometimes

It is the only thing makes us feel alive

We keep this love in a photograph

We made these memories for ourselves

Where our eyes are never closing

Hearts are never broken

And time's forever frozen still

وعندها قمتُ بفتح ملفات صورنا معًا، تسلّلَت دموعي رغمًا عني.

فهي دموع حنيني لضحكاتي معكَ، كيف يمكن أن نكون بتلك السعادة يومًا ونكون الآن بهذا القدر من التعاسة؟!

لِمَ هذا التألم والإحساس بأن الحب يمكن أن يدمّر كل ما كان لدينا معًا؟! ابتسامتك التي أعشقها.. لمعة عينيك عندما تنظر إليّ، أو عندما تصحّح لي بعضًا من كلماتي، أو عندما أقوم بإغاظَتِكَ؛ فتبتسم واضعًا لسانك على طرف أسنانك.

أعرفُ أنها طفولتي الشديدة التي استمرّت لأعوام، ولكني أحبكَ الآن، وبداخلي أنثى تعشقك، وضعتُ يديّ على قلبي، حقاً لا أستطيع

ذلك! وذلك البكاء الممتلِئ بعيني عليه أن يتوقف.. أن أجد ذاتي أولًا وأعود، أعِدُكَ أن أعود إليك وليس بعضًا مني.. أن أكون معكَ بكاملي.. بكل ما فيّ.. بجنوني وهدوئي معك، أعود إليك بطفولتي ونضجي.. بما يجعلني ما أنا، وليس كما تعرفه فقط عني.

-مازن-

ديلارا..
أعرفُكِ..
ولهذا أحبُّكِ..

تذكرتُ حديثها في خلافاتنا الأخيرة، وأني لا أعرفها، ولكنها لا تفهم.. أني أعرفها جيدًا؛ فهي روح وقلب يتشكّلان بداخلي.. فكيف لا أعرفها؟! أرواحُنا تعارَفَتْ من قبل.. من قبل أن نُولَد، وجئنا لهذه الحياة معًا، فكيف يمكن أن يعرف أحدنا الآخر بهذا القدر والإحساس؟! فأنتِ بداخلي، وإن لم أجدْكِ؛ لعكَفْتُ العمر بأكمله أبحثُ عنكِ! وبكِ أشعر بالاكتمال، ولكنه الفراق! وهكذا يبدو كما افتَرَق آدم عن حوّائِه، عليّ أيضًا أن أجتازَ هذا الاختبار.. بعد أن التقينا معًا على هذه الأرض.

علمتُ أنّ هذا سيحدث يومًا ما! وشعرت بذلك، وكنتُ أخشَى منه.. أن نفترق، وأن يعبَثَ بنا القدر! حسنًا.. إنه ليس القدر، بل هو الاختيار بأن يمضِي كل منا إلى أرضٍ حيث يجد ذاته، ومن ثم نعود إلى بعضنا بعضًا! هكذا أتمنى!

كنتُ أعلم أنه سيحدث يومًا ما؛ فلم أكُن بهذا التفاؤل نحو هذه النهاية، ولكنها حماقة مني أن أحاول تغيير ذلك؛ فقمتُ بتعجيله.. فهربتِ مني، فأنا من قام بذلك، بدفعكِ عمدًا لتهربي من قربي الشديد واندفاعي نحوك؛ حتى لم تتمكَّني من الاستمرار في لعبتي الخاصة؛ فتوقّفْنا الآن.

وها هو هدوءٌ لم ننَلْه منذ عقود عديدة، وها هي نبوءَتي قد أتَت.. وتحقّقَت!

-ديلارا-

توجهتُ نحوه في ثبَاتٍ وعيناي تشعان بالطاقة والتفاؤل، ظل ناظرًا لي في تقدُّمِي هذا وعيناه تلمعان في إعجاب شديد، وأطفأ آخر سجائره، وقطعْتُ عليه تأمّلَه بي الذي زاد عن دقائق منذ جلوسي أمامه.. وغرقي في زرقَةِ عينيه أيضًا، وتحدثت إليه...

ديلارا:

- أنا موافقة.

يوسف:

- طب ما أنا عارف.

- ازّاي يعني! عارف؟!

- أمّال جايّه وشكلك كدا عشان تقولِيلِي لا؟! ولو قلتِي حتى لا.. ماكُنتِش هسيبك!

- يعني من ساعة ما شُوفتني داخلَة عليك عرِفْت إني موافقة على إنّي أبقى معاكم في الفرقة؟!

- لا.. عرِفْت من أول ما كلمتيني! من صوتك.

- كمان.. اممم طب إيه؟ هنعمل إيه دلوقتي؟

- أبدًا يا ستي.. هنشرب حاجة بس وآخدك لمكانّا الخاص.

- نعم؟!

- هي دايمًا ردودك كدا؟ بتفصِل؟!

- لا والله.. بس يعني إيه مكانك الخاص؟!

- بقولّك مكانّا! يعني بتاع الفرقة بتاعتنا -زي استديو كدا- هيعجبك جدًا، أو ابقِي شوفيه الأول وقوليلِي رأيك، ها تشربي إيه؟

- تمام جدًا.. نحتفل بقى، يبقى.. أيس كريم.

- هههه تمام.. بس كِدَه؟!

ابتسمتُ ليوسف، وشعرتُ أنه ينمُو لي جناحان صغيران! وأن صدري لم يعد يتحمل دقات قلبي؛ يريد أن يتعجّل بالرحيل إلى الاستديو.. إلى المغامرة.

أخذَنِي يوسف وأمسكَ بيدِي، لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل حينها! فسحبتها ببطءٍ، ورفع عني الجيتار فلم أعطه إيّاه وأمسكتُ به بشدة، كأنما يأخذ مني قلبي وليس جيتاري! فضحك على ردّةِ فعلي قائلًا:

- طيب شيليه انتِي بنفسك.

- طبعًا.. دا روحي!

وعندما خرجنا من الكافيه وجدتُه يقف أمام الباب؛ ليوصلِنِي، ولكني لم أتوقع ذلك.

تسمرت مكاني في دهشة!

-مازن-

وقفتُ أمامها ولم أستطع ان أنطق حرفًا، عيناها تعاتِبُني وشعُورِي نحوها، هذا الخذلان الذي يسري بداخلي مسموم، ولا أستطيع أن أخرجَه مني، وإن اضطررتُ أن أبتلع هزيمتي هذه.. لن أستطيع، حتى تحدثَتْ وقلبي بداخلي يتمزّق.

أم ديلارا:

- هي ماكلّمتَكْش خالص يا مازن؟

مازن:

- أنا آسف والله، حقِّك عليّا.

- أنا مش عارفه أعمل إيه؟!

- بس أنا متأكد إنها كويسة.. ومش عاوزِك تقلقي، وأنا لسَّه هدوّر عليها تاني يا أمي.. صدقيني.

- مصدّقَاك يا مازن.

- بس أرجوك ماتسِبْهاش يا ابني.. ربنا يقوّينا على القلق ده.

- حاضر يا أمي.

أكثر ما أمقتُه هو الشعور بالعجز، كلّما طاردني شبحُ أبي أشعر بالعجز في كل موقف لا يمكنني أن أغيّره، أو أن أقوم بشيء ما، حتّى يأتي شبح أبي، أراه يحُوم حولي وتتجمد أطرافي، وتثبتُ قدماي بالأرض كجذور ممتده بها، ويتهاوَى قلبي نحو قدمَيّ؛ فتتجمد الصورة بعقلي ولا أتحرك خارجها، مرَّت الأعوام وما زالت هذه الصورة بداخل عقلي.

تركتني أم ديلارا على وعدٍ مني أن أجدها، هكذا كما وعدتها منذ أيام عديدة ولم أفِ بعهدي معها، حتى صارت كلماتي الخارجة مني تشبه المسكّنات التي اعتاد عليها المريض؛ ففقدت مفعولها، تُشعِرُكَ فقط بأمان مؤقّت؛ حتى يعود الألم مجددًا لينهش عظامك ويفتّت روحك لأجزاء هاوية، أخذَتْني قدماي إلى جوار النيل، مكانٌ اعتدنا أن نجلس فيه، وجلست في صمت أفكّر؛ لعلني أجد ضالتي.

-ديلارا-

تعجبتُ ونظرت ليوسف في دهشة طفلة صغيرة وجدت اكتشافًا عظيمًا أمامها، ابتسم يوسف لبراءتي واندهاشي.

يوسف:

- يلّا اركبي.

- أركب إيه؟!

- يلّا اركبي هنروح بالموتوسيكل بتاعي!

- دا بجد؟! لا أنا بخاف. ولّا أقولّك مش هخاف خلاص! يلّا.

ضحك يوسف لتردّدِي الطفولي، ووضع لي خوذة صغيرة أصبحَت مضحكة أكثر عندما وضعَهَا حول رأسي، وشعرِي الكثيف يخرج حول وجهي، وشفتاي الملتوِية في طفولية!

ديلارا:

- لا كدا شكلي يضحّك بجد!

- ورّيني كدا.

كاتمًا ضحكة مداعبًا شعرِي الطائر، وهو يقوم بتثبيت الخوذة جيدًا، شعرتُ حينها بوخزٍ بأناملي، ولم أُبْدِ أيّ رد فعل كما ظننتُ أن أفعل، وركبتُ خلفه ويتملّكني شعور رائع بالحرية.

يوسف:

- امسكي فيّا كويس، ومش عاوزِك تتحركي أي حركة مفاجأة.. أي حركة هتتحركِّيها هحس بيها، اتفقنا؟!

- اممم حاضر.. ماتقلقش أنا بسمع الكلام.

الشعور الرائع الذي يأتي إليك دون مقاومتك؛ إحساسك بالتسليم "I let it go".. تنهيدة صدرك، إن كل مشاعرك السابقة وما يأتي لا تفكر به.. هي اللحظة، اللحظة الحالية وفقط! وضعتُ يديّ حول

خصر يوسف كما طلب مني.. ترددتُ في البداية، ولكن مع أول انطلاقة أمسكتُ به جيدًا، وهو لم يترك تلك اللحظة أيضًا دون أن يزيد من سرعته؛ كي أحتمي به ولا أتركه؛ فحضنته!

نظرت حولي.. الشوارع يلتهمها يوسف بطريقته الخاصة؛ لإثارة إعجابي بسرعته، ولكني لم أُبْدِ أي اعتراض، كنت سعيدة جدًا.. قلبي يكاد أن يتوقَّف من الخوف مرارًا، ولكني سعيدة.

إن مشاعر الحرية التي أتَت لي بعد سنوات طويلة من الانتظار تحيطني بذراعيها وتشجعني أن أحياها، وعندما توقفنا.. قدمَاي لم تعُد تريد أن تعودا إلى الأرض الثابتة مرة أخرى، شعرتُ أني سأفقد توازني، ولم يترك يوسف يديّ حتى انتبهت أنني أقف إلى جواره لمدة ما.. مغمضة العينين، ولكن بلحظة صمت شعرتُ بوخزة ألم، وتردّدَ اسم مازن بعقلي؛ فتركت يد يوسف في رهبة شديدة.

-مازن-

أكثرُ ما يرهق هو الخوف.. الخوف من الخسارة، الخوف من التألم، الخوف من الرفض، لم أكن أخشى منها بل من نفسِي، من هواجسي الكثيرة حول الحب، حول الألم، حول الهجران.. إن لم تكن الإجابة مُرضِيَة، لم يكن يعنيني أمر الزواج، بل كل ما كنت أريده أن تبقَى معي دائمًا.. أن لا ترحل.. أن أكون رَجُلها دائمًا، كما كنت أفعل منذ صغرنا.

أتذكر يومًا بمدرستنا تعرضَت فيه ديلارا لظلم من إحدى المدرسات، وتلقَّت عقابًا بالخطأ عن فتاة أخرى، ولم تُبْدِ هذه الفتاة أي ندم على فعلتها، أتذكُّر تألم ديلارا وبكاءَها وهي تنتظر أمّها، التي ما إن علمَت بالأمر حتى وبّخَتها توبيخًا شديدًا ولم تصدقها! وظلَّت باقي الأسبوع في المدرسة لا تريد أن تتحدث إلى أحد.

كنت أشعر بالغضبِ الشديد، ولم أترك هذا الأمر حتى جعلتُ الفتاة المخطئة تعترِف لمُدَرِّسَتِنا عن خطئها، وقيام المُدَرِّسَة بالاعتذار لديلارا، وهذا لم يكن كافيًا لي؛ بل جعلتها تقُومُ بالتوضيح لأُمّ ديلارا أيضًا، ورغم صغر سنّي حينها إلا أن هذا جعل ديلارا سعيدة جدًا سعادة تغنيني عن الحياة بأكملها، كنتُ يومها لا أمشي على الأرض، لقد كنت بطلًا خارقًا لفتاتي وهي تمشي إلى جواري وقد عادت لها ضحكتها ومرحها المعتاد.

أريد هذا، ولكن ما حدَثَ بيننا من مشادات جعلَت قلبي يخرج من صدري ولا يسعني؛ فأهرب منها وإليها، ولا أجدُ راحةً ولا طريقًا لأقوم بإصلاح ما جنيته بنفسي من تدمير ما بيننا من صداقة.. وما جنيتُه بقلبي!

-ديلارا-

شعرتُ بالسعادة لتجربتي الأولى للركوب خلف يوسف وهذا التحليق، لكن بداخلي يتفاقَم هذا الشعور، الحيرة والتردّد.. مَرَضِي المزمن، أن أعرف ما أريد وما لا أريد وأقف بينهما، وتأتي إلى جميع الاحتمالات الجيدة والسيئة معًا، فلا أختار شيئًا في حالة تردد، وقد أقوم بوضع الاحتمالات الأسوأ أحيانًا إن اقتضى الأمر؛ حتى أهرب من نفسي.

عرفتُ يومًا من صديقتي عاليَة أنّني برج الميزان، وهذا سبب ترددي كلما عملنا بأحد الأبحاث أو اختياراتنا معًا، ولكني كنتُ أهرب من هذا بمَرَحِي وسذاجة تلك الأحاديث!

وها أنا أقف ثانية في حالة تردد، وأريد أن أخاطب عاليَة وأحكي لها عن يوسف، وعن مغامرتي وجيتاري وبروفات الفرقة بتلك الأسابيع، ولكني لم أقدِر على ذلك؛ خشيتُ أن تُعلِمَ مازن بمكاني، أو أن تخطئَ بتلميحٍ ما.

وعندها تذكرتُ يوسف ومازن معًا واختلافهما الشديد، جِدّيّة مازن على الرغم من صغر سنه وكم هو خجول! وشخصية يوسف الأكبر سنًا ووسامة والأكثر جراءة.

ولكني كنتُ أتردّد منذ صغري في مشاعري، ولم أكن أهتم بالعلاقات؛ فقد كانت الصداقة لي أحبّ من تلك التعقيدات، ولكن عندما يتحوّل إعجاب أحدهم بِي إلى استلطاف حقيقي؛ أقع في رهبةٍ وتوتّر.. وهروب!

قد أُخفِي هذا بملامحي المرحة، وابتسامتي الدائمة، وبغمازة وجهي الوحيدة التي تعجب الجميع، ولكن بعقلي يدور الكثير من القلق والخوف من الحب، ربّما! أو الفقد!

وها هي مشاعري في حالة تردد بين مشاعري لمازن صديقي ورفيقي، وما أشعر به نحو يوسف، تمرّ الأيام معه حقًا جميلة، وأشعر معه بالأمان الذي كنتُ أبحث عنه منذ فترة طويلة... نخرج كثيرًا، نتمشّى ونتحدّث.. ونعزف سويًا، لقد كان أمرًا مختلفًا منذ اليوم الأول الذي ذهبتُ معه إلى الاستديو، يبهرني بما يعرفه من ثقافة وعن الفن والكتب، لم أكن أعتقد أنه يعرفها بهذا الشكل كشَابٍّ وسيم يبدو منه أنه مُلفِت للفتيات وكثير العلاقات، ولكنه أيضًا ذكي جدًا وموهوب بعزفه معي؛ فهو رائع وإحساسه كذلك.

جعلني أنتظر كثيرًا ولم أسمع صوته بعد، ولكني علمت من أصدقائه أن صوته رائع أيضًا، لم أسمعه حتى الآن، ولا أعرف لِمَ يُبقِيني في حالة ترقب لما يجيده ويحبه؟! ولكني أستمتع بهذه الحالة من الترقب والكشف عن ما هو غامض وجديد في شخصية يوسف.

أشتاق مازن كثيرًا، أشتاق أن أحكي معه عني وعن ما أمر به من تجربة، ولكن فجأة أشعر بوخزٍ في قلبي؛ فألملم هذا الألم بنفسي كما ألملم شعري الكثيف، وأربطه في توتر يلفتُ انتباه يوسف لي.

وأحاول أيضًا أن أبدو قوية، ووقوفي أمام المرآة وفي انتظاري يوسف بعدما انتقلتُ لمنزل صديقتي "إكرام" الفتاة المغربية، وتركت "الموتيل" بعد أيام، وإقناع يوسف لي لَمْ يحتَجْ وقتًا طويلًا.

إكرام:

- الملابس الجديدة عليكِ حِلْوِين بالزاف.

ديلارا:

- أول مرة ألبس ملوّن كدا! بجد حلوين؟

- هينطقُوا عليكِ زيّ ما بتقولوا بالمصري هههه.

- فرحتيني.

- يلّا بينا بقى على الاستديو؟

- مزيان.

- أيوَه بقى.. تمام.

رفعتُ شَعْري عاليًا وأنا مرتدية ملابسٍ من اختياري مع بعض المساعدة، ولكنها تسعدني! تشبه غجريّتي، وحملتُ جيتاري إلى الاستديو، إلى حياتي الجديدة والحرية التي اخترتها، وصارت لي أخيرًا.

-مازن-

تجمّدَت المشاعر بداخلي، وصارت كجبلٍ ثلجيّ لا أستطيع أن أزيحَه عن صدري.. تتثاقل عليّ، وتتثاقل معها الأيام، تمر بشيء من البطء والبرودة والظلام أكثر من ليالي هذا الشتاء البادِئ بغيابها، مررتُ بكل الأماكن التي جمعتني بها، ولم أجِدْ في وجوه المارّين غير عبوس وجهي وملامحي الرثّة، وعينيّ الخاويتين من كل تعبير وحياة.

عبرتُ الشارع، وعبرَت حولي السيارات كعبور الأزمنة الماضية منذ أن رأتْكِ عيناي يا فتاتي! توقفتُ وتوقّفَت أمامي إحدى العابرات، ظننتُها أنتِ قادمة لتسحبي يدي، ولكنها فقط مرَّت إلى جواري وأدارت عينيها عنّي في استهجان؛ فعدتُ أُكمِل طريقًا لا أعرف إلى أين قد يأخذني؟! الشارع صار مُظلِماً لا أميّزه، ولا أجد منزلي بهذا الحي الذي جمعنا سويًا لسنوات طوال.

ولكني وجدتُه بعدما دُرتُ حوله لبعض الوقت، وجاهدًا في التهرب من أمي وتعليقها على ملابسي وذقني الطويلة وإهمالي لطعامي، دخلتُ غرفتي وأغلقتُها عليّ ليعود ظلامها الهادئ، ووضعتُ جسدي في الركن الأكثر ظلمة بغرفتي؛ حتى غاصَ جسدي بين قدمي، واستحال الكون إلى ظلام وومضات بعقلي الشارد؛ فرأيتُكِ تقِفين وحدكِ بنوركِ الخاص مرتدية ثوبًا من نجوم مضيئة مبتسمة بغمازتك المحببة لي، كم أنتِ بعيدة عني كنجمة بسماء! أريدُ أن أمُدّ يدي إليكِ ولا يمكنني؛ فتلاشَى كل شيء وانطَفَأ، وعدتُ إلى ظلامي الخاص.

بينما لا أجد مني مفرًا أو خلاصًا أردتُ أن أراكِ كما رأيتُكِ في رؤيتي تلك، عدتُ لنورٍ ضئيل بالغرفة رافعًا عيني باحثًا عنه، وجلستُ على مكتبي بإضاءة مصباحه الصغير، أخذتُ أقلام الفحم المرصوصة على مكتبي وبدأتُ في تشكيل شعرِكِ الفحمي الكثيف على الورق، وعيناكِ

السوداء اللامعة. أحفظ ملامحك عن ظهر قلبٍ لم يفقد ذاكرتَه الخاصة بتفاصيل من أحبَبْت، ولكل شيء بكِ رائع ونقي.

طالما أخفيتُ أقلامي ورسوماتي عنكِ، ولكنها الآن لا تستطيع أن تبقَى بداخل الأدراج؛ فهي تعطيني بعضًا منكِ بما تخطُّه يداي، وإن الصور وإنْ كانت بكامل الملامح لا تكتمل، ولن تلمسها يداي مثل رسمك!

وهكذا مرَّت أسابيع بمنزلي.. أهربُ من عالمي الخارجي لرسوماتي، أضع مشاريعي جانبًا وأنتهي منها، والألوان وأقلام الفحم هي ملجئي، وغرفتي هي مرسمي، وعيناي هي نافذتي على هذا العالم وهذه الحياة، حتى هدَأَ عقلي كثيرًا وبدت الحياة أكثر هدوءًا واحتمالًا. ليست مكتملة، ولكنها تمضي أقل ألمًا وسكونًا!

-ديلارا-

تمايَلَ جسدِي مع الموسيقي، دقّاتُ قلبي تزداد مع الطبلة، وضعتُ يديّ على جيتاري وبدأت بالعزفِ لأول مرة أمامهم، شعرتُ بالخجل، ولكني بعدَها شعرتُ أني أعرفهم منذ فترة طويلة؛ فانسجمت، بدَتْ نغماتي رائعة متجانسة مع ألحانهم المختلفة.. مع أغنية لـ LP

(Lost on You)

saner، plainer،When you get older

When you remember all the danger we came from

tender، falling،Burning like embers

Long before the days of no surrender

Years ago and well you know

أغمضتَ عينَيّ وتسارعَت أنفاسي وموسيقاي، ولم أشعر أنّهم توقفوا جميعًا عن العزف وأني أعزف وأغني وحدي! فهي إحدى أغنياتي المفضّلة لـ "Lp"، حتى رافقني صوت رائع! لم أكُن أدرك أن يوسف لديه هذا الصوت، وعيناه تنظران لي بإعجاب شديد مشجعًا... اندمجنا معًا، وأكملناها سويًا..

To all the things I've lost on you

Oh oh

Tell me are they lost on you

Oh oh

وعندما انتهينا كانت نبضات قلبي تقفز خارجِي، وعيناه المشتعلتان وشفتاه مع اللحن والكلمات، وجسدي تجمّد لوهله، للحظة لم أعد أشعر بشيء غير السعادة الحقيقية.

عيناي لم تتوقّفا عن النظر إلى يوسف، وتعلّقَت عيناه بي أيضًا، لكننا انتبهنا بسبب ضحكاتهم وصفيرهم؛ فاستيقظتُ من حالتي

المنتشيَة وخجلي الذي ودّعته قَبْلًا: فقد عاد إليّ، بل وزاد توتري: فأسرع يوسف لي مبتسمًا:

- بس بس يا جماعة.. نهدى شوية بقى.

جوي:

- أيوَه خلُّوها تاخد نفسها!

إكرام:

- يا الله على جمالكم!

ديلارا:

- يوسف هو اللي غنّى حلو قوي.

يوسف:

- عشان تعرفي بس، يعني مش عيوني بس اللي حلوين!

إكرام:

- هههههه إيه الثقة دي؟!

ديلارا:

- نعم؟ تقصد إيه؟!

يوسف:

- لا ماقصُدْش حاجة.

جوي:

- طب يلّا بقى هنروح ناكل يا جدعان.

إكرام:

- إي والله جعانة بالزاف.. يلّا.

بيشو:

- أؤيد.. يلّا بينا جدًا.

عدتُ بعدها مع إكرام للمنزل في حالة سعادة ومرح لم أشعُر بها منذ صغري، منذ فترات طويلة جدًا، منذ أن كان معي مازن نحارب الكون ونرسم ونلوّن الحياة بخيالنا الخاص؛ حتى صار كل شيء بيننا يشبه الثلج، ولم أستطِع أن أفعل شيئًا.

-مازن-

تدهورَت حالة أمي الصحية فجأة، ولم أعِ أيامي فيما تآكلَت، ولا أدري عن نفسي شيئًا، غير أنّ أفضل ما كان لديّ لم يعُد معي، وأنني أُعطِي أفضل ما يمكنني فعله، وإن لم يَكْفِ! فما استطعتُ، وهذا الأمر نافذ لا محالة، مرّ شهر على فراقها ولا أعِي ما فعلَتْهُ به من مشاوير الجامعة والمَشْفَى والوِحْدَة بمنزلي، والذهاب لأخواتي الصغار وإعطائهم ما يكفي من مصروفات وسماع شكاوَى لا وقت لها، دون الترفق بي.

مرّ الشهر ثقيلًا لا يحوِي من البهجة شيئًا، كما أنني صِرتُ خاوِيَ القلب، أو ربما ما تحطم مني! لم يبقَ لي من قلبي شيئًا، توقفتُ عن عِنادِي وانكسر كبريائي كثيرًا في هذه الأيام، لم أكن وحيدًا بل تائهًا! ما قَد فعلته بتلك الأيام؟! ولأول مرة منذ سنوات وجّهتُ وجهي إلى الله ساجدًا.. سجدتُ بكل ما فيّ من انكسار ولَوْعَةٍ وألم، وعَلَتْ آهاتي إلى عنان السماء، وتسلّلَت دموعي من عينيّ إلى سجادة صلاتي في هدوء وسكينة الحزين المنكسر.. سجداتٌ وابتهالات لسنواتٍ مضَت، وعمر لم أُعطِ فيه ما يكفي من صلوات، لطالما كنتُ أشعر أن الله معي، ولكنني الآن أريدُ القرب كثيرًا.. أن لا أقف وحدي، وأن أترك ما أرهقني من هموم خلفي.

فبكيتُ وبكيتُ حتى فاض صدري بكل ما فيه وأُنهِكَ جسدي؛ فرأيتُني حينَها اثنين؛ فجلستُ إلى جواري أراني بعينين أُخرَيَين!

ما هذا الذي آل بي! أهو الحب أم الوَلع؟! أهو الشوق أم الشجن! أهي نسِيَتْنِي أم أنني نسيتُها؟ فعادت لي حين علمَتْ بضعفي، وأن قوة الأقدار أقسَى مما أتحمله!

فوضعتُ كفِّي على كتفي كأبٍ تركني منذ أعوام بعيدة أخْفَتْه عنّي حتى نسيته، زحف إلى وجه أبي في ملامحه الهادئة، وصارَت صورته أمامي.. واضعًا يده فوق كتفي مهدِّئًا لرَوعِ ما بي، كنت أهرب منه،

ولطالما هربت! ولم أُرِد أن أرى وجه أبي حتى بالصور؛ حتى لا أتذكر ما فعلته، ونسيت أن موته لم يكن غير عُمرٍ قد كُتِب وأجلٍ قد حان! ظنَنْتُ دومًا أنني السبب، ولولا ما فعلته معه لكان حيًا باقيًا.

زادَت تنهيدات صدري ونحيبي، ويد والدي لا تزال فوق كتفي صامتًا حتى أهدأ؛ حتى ذابَت الصورة تمامًا ورحل، شعرت به.. بحضوره، وأن الله بعثَ لي هذا الشعور ليُخرِجَ الألم المتشبّث بداخلي خارجه، أخيرًا بعد تلك السنوات العجاف، وأن أَغْفر.. أغفر لأبي رحيلَه المبكر عني، وأغفِرُ لي فقدِي إياه، وخطأً غير مقصودٍ وعمرًا قد مضى، وروحًا عادت لبارئها وهو مستودعها، ونعم المودع ونعم المصير!

ديلارا-

عدتُ فجأة إلى القاهرة..

لم يعرف عنّي أحدٌ، خاصة مازن وأمي، لقد شعرت أن شيئًا سيّئًا قد حدث.. أحلامي لا تكذب عليّ، منذ صغري وأشعر بهذا، وعندما عُدتُ علمتُ من صديقتي عاليَة، وعرفت منها بمرض أم مازن "طنط صفاء".

كنتُ أشعر بالألم والخوف؛ فقد رحلَت عنه.. عن صديقي، وهو الآن وحده ويحتاجني! ولكنه لا يراني ولا يعرف عنّي شيئًا!

بل وساءت أحواله وأحوال أهله، كنت في حالة ضبابية، أريد أن أعود إلى الإسكندرية ولا أستطيع، وأريد أن أبقَى ولا أجد غير أنّي أفقدُ ذاتي مجددًا!

ذهبتُ إلى المَشفَى ورأيتُ أمه بالعناية المركزة، بكيت على حالها وتدهور صحتها، وبكيت أكثر على ما يشعر به مازن حاليًا، تركت المَشْفَى متعجّلة؛ حتى لا يراني، وتجولتُ بالشوارع كطفلة تائهة لا تعرِف طريق منزلها! وتريد بشدة أن يشعر بها أحد، ولكنها تخاف من الجميع، وتخشى أن يوبّخَها من تُحبّ؛ لأنها تركَت يده وضاعت، ولم تجد طريق العودة إليه! فأسرعت بخطاي وأخذت ما تمكّنَت "عاليَة" من جلبه لي من أشيائي الخاصة لديها، وأعطيتها رسالتين؛ أحدهما لمازن، والأخرى لأمي... وسافرت!

ولكن ليس إلى الإسكندرية، بل لقبر الحبيب وراحلِي، ولم أعرف غير أن كل طُرُقِي قد سُدَّت، وأريدُ فقط أن أحدّثه وأن أقف أمامه؛ فرحلتُ إلى أبي، وقفتُ أمام قبره بالمنصورة، ودمعَت عيناي حتى فاضت حد الهزيمة وحد الإشفاق عليّ!

قرأتُ آيات مباركة على روحه، وتمتمتُ بدعوات حفظتها ويوميًا كنت أدعو له بها، كنت أحبّ أبي كثيرًا، ورحيله كان لي صادمًا وفارقًا؛

فقد كان لي أبًا وحبيبًا! وهل يمكن أن تصِفَ فتاة حُبّ أبيها لها؟! أبدًا لا تعرف. أو تعجَز عن ذلك. وبرحيله عنها يزداد الأمر صعوبة. ولا يسهل أبدًا بمرور الوقت. بل يبقى بالقلبِ جرحٌ لا يندمل.

ولا يكفي رجال العالم أجمع ليحتَووا قلبَ صغيرةٍ فقدَت أباها.. أعظم ما تملك بالحياة. تمتمْتُ دعواتي وعكفتُ أمام القبر أرجو له ولِيَ الرحمة. لقد نسيتُ نفسي وحالي. ولم أعد أعرف إلى أين قد أذهب؟!

أشتاق الجميع ولا أستطيع أن أعود لأحد! ولكني أعلم أنني في رحلتي. وعليّ أن أجد نفسي وأن أحبها جيدًا. ولكنه الفقد ولم أعد أتحمّله. فقدٌ تِلوَ الآخر: حتى صار جزءًا لا ينتهي من قلبي ومشاعري. عليّ أن أتعلّم أن أكون وحدي. ولا أخشى الفقد مجددًا.

لا راحة في رحلة ليس بدايتها النفسُ. وهي البداية التي تجيب كل الأسئلة. وهي الخلاص!

أخذتُ بيدي وأغلقتُ بابًا لم يُفتح منذ سنوات. وفتحت بابًا آخر إلى طريق يبدو لي غير واضحٍ. ولكنه الأكثر عمقًا وتفاؤلًا! أغلقتُ باب قبرِه وفتحتُ لي مع نفسي طريقاً آخر. وركبت عائدة إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية.

-مازن-

(توقف بي الزمن عند تلك اللحظة التي وضعَت عاليَة بيدِي رسالتَكِ.. وأخبرتني أنكِ رأيتِ أمي المقيمة الآن بالرعاية ورحلتِ!!)

توقّف كل شيء.. تلك العدّادَات بالمشفى ودقات ساعتي! وتلاشَى كل شيء تدريجيًا أمام عيني، حتى الأصوات صارَت صدًى لهواءٍ خاوٍ بين جبلين خلفهما أقِفُ أنا، والآخر أنتِ! لا أسمع أحدًا ولا أرَى غير تلك المسافة الشاهقة بيننا الآن! وضعتِها ورحلتِ، وأطبقَ عليّ الحديث والصمت والليل والظلام.

ومرّت ليلتي لا أحدّث غيركِ! عن ما آل بي وبنا! وهل عبثَت بنا الأقدار أم أنه قراركِ وقراري؟! أغلقتُ عينيّ في استسلام متقلّب القلب والجسد، بداخل غرفة أظلمَت عليّ حتى ضاقت، وأُغلِقَ عليّ بداخلها.

وعندما انتبهتُ لاختناق صدري، وعاد ضيق التنفّس لي مجددًا: فلم أعد أستطيع أن أخرج نفسًا منتظمًا، أو أن أستجديَ أحدًا أن ينقذني؛ رجفَت يداي بحثًا عن بخّاخَةِ الصدر حتى تلوّن جسدي واحتقَنَت عيناي؛ فشعرتُ أنني أعرق، بكاءٌ أصاب جسدي كله، عيناي وجسدي بأكمله يبكي! وعندما أردتُ أن أنام اعتَرقَ جسدي بهذا الفراش البارد، وبعدما هدأتُ وخفَّت رجفات جسدي، فتحتُ رسالتك بمنتهى الحنق واليأس بأني لم أرغب أبدًا بأن أكونَ بهذه الحالة من الضعف والهوان، وها أنا أريد أن أعرفَ.. ماذا كتبتِ إليّ؟! أهي إجابتُكِ الرافضة؟! ربما عليّ أن أعرف الآن وليس فيما بعد؛ فيتألم قلبي مرة بدلًا من هذا التقلّب! ها هي رسالتك، فهلّا أخبرتني الحقيقة وأنكِ لم تحبّيني يومًا وتركتِني بلا عودة!

تزيّدَت دقات قلبي مع كلماتِكِ القليلة! لم أستوعِب حقًا هذا الذي كتبته لي. فما حقُّكِ لتفعلي بي كل هذا؟! وأن أجد منكِ هذا الرد الأجوف. بل الرسالة التي لا تعطي ولا تغني ولا تسمن من جوع!

أنا آسفة جدًا... يا مازن..

على كل.... حقُّك...

-ديلارا-

لم أجد غير كلمات قليلة لأكتبها إلى مازن.. لا أعرف ماذا عليّ أن أقول؟!

(آسفة جدًا يا مازن... على كل حاجة.. حقّك عليّا!)

(والله كنت عاوزه أبقى جنبك مع والدتك، بس ماقدِرْتش غير إني أطمّن عليها وعليك)

عدت إلى هناك! لم أعرف غير أنه المكان الوحيد الذي يمكن أن أكون فيه وأريد، ترجّلتُ من القطار ووجدتُ أمامي يوسف بعينيه اللامعتين الممتلئتين بالحياة، وفي مقابلها عيناي الممتلئتان بالدموع، أخذني من يدِي دون أن ينبسّ بكلمة، ولم أعترض!

سرتُ معه كالطفلة التي وجدَت أخاها، يمسكُ بيدها فلا تريد غير أن تبقَى معه، وإذا رآها تبكي يجلب لها الحلوى حتى لا تحزن!

أخذني يوسف إلى أحد المطاعم الهادئة، واضعًا أمامي كأسًا كبيرة من الأيس كريم فانيليا الذي أحبه، كدتُ أبكي مجددًا، ولكني حينها في صمتٍ ابتسمتُ له، وعلى الرغم من أن كل شيء كان أقوى من درجة تحمُّلِي إلا أن عينَي يوسف تبعثان في نفسي راحة كبيرة، أذابت بداخلي ألمًا خفيًا كما ذاب الثلج في فمي بهدوء وسلاسة، إنه يراني كالطفلة ولم أَكْبِر حتى الآن، أكاد أبكي حُبِّي لمازن؛ لتكرار جملته تلك لي بأني طفلة في عينيه! ولكن يوسف لم يترك لي فرصه لتعود العبرات إلى عيني، وعندها أضحكني بقوله:

- لا دا انتِي حكايتك كدا مش هيكفِيها الأيس كريم!

- يعني إيه؟!

- لا احنا نقوم بينا على كبدة الفلّاح.

لم أتمالك نفسي من الضحك، وأوقعت على نفسي الأيس كريم؛ لأثبت له طفولتي بحق.

لم أشعر بذراعي الذي أحاط يوسف عندما ركبتُ خلفه على الموتوسيكل، كنت أشعر أن عالمي لم يعد كما كان، وهو الأقرب لمَا يرتاح له قلبي الآن.. تطاير شعري مع الهواء على الكورنيش، وزادَت سرعة يوسف؛ فتشبّثْتُ به أكثر، حتى وصلنا لمكان بجوار الصخور لنجلس عليه.

صفحات المياه المتخبطة بالصخور في تلوّنها الفضي وعلوّها الهائج تارة والهادئ تارة أخرى، يشبه كثيرًا حياتي المتلوّنة.. يصيبني الخوف من تقلّبِها، ولكنها تعود هادئة مرة أخرى؛ فأعود لا أخشى شيئًا معها، يزداد زبَدُ البحر تجمعًا، ثم يتلاشى كأن شيئًا لم يكُن، هكذا شعرتُ أن همومي ستزول قريبًا.

يوسف:

- ها مش هتحكيلي؟! بس مش هضغط عليكي، وقت ما تحبي نحكي.

ديلارا:

- أنا مش قادرة أحكي لنفسي يا يوسف! ماتشغلش نفسك بيّا.

- يبقى مش هتقدرِي تحكي دلوقتي! خلاص، المهم عندي تبقي كويسة.

- هبقَى أحسن.. ماتقلقش.

عاد الصمت بيننا، ولكنّي شعرتُ أن جبلًا هائلًا بيني وبين من أُحِب يكبر بداخلي! ولكن مع يوسف بدأ هذا الجبل يصغر.

نظرتُ عاليًا للسماء وأنوار النجوم اللامعة تنبض بقلبي، أعشق نجوم السماء؛ فهي تشبهني، وعندما غرقتُ بها انتشلني صوتُ يوسف ودندنة من أغنية.

ديلارا:

- مش عارفة الأغنية دي.

يوسف:

- دي أغنية City of the stars من فيلم La la land.. تحبي تسمعيها؟

- آه أكيد... شغّلها كده.

- City of stars

- Are you shining just for me?

- City of stars

- There's so much that I can't see

- Who knows?

ودندنتُها مع يوسف بعد تكرار كلماتها والمزيكا..

يوسف:

- عجبتك؟

- حلوة قوي بجد.

City of stars

Just one thing everybody wants

And through the smokescreen of the crowded restaurants

Its love

Yes. all we're looking for is love from someone else

أمسك يوسف بيدي، ومال نحوي بهدوء حتى لم أنتبه لهذه القبلة بعد ما شعرت أن جسدي أصبح خَدِرًا، ولم أعد أشعر بأطرافي، ونظر إلى ولم أتحدث؛ فقد كنتُ مغيّبة وجسدي لا أشعر به.. قلبي يخفق، وعقلي تجمد.

-مازن-

شيئان يغيّران الإنسان.. الغربة، أو عندما يتألم أكثر من اللازم.

مقولةٌ قرأتها كثيرًا ولم أكن أؤمن بها حتى وجدتُني بداخلها! وتذكرتُ مقولة أخرى لجورج روالت "لا يتألم إلا من كان وفيًا أكثر من اللازم".

وعدتُ أكتبُ إليكِ -كما بدأتُ منذ فترة رحيلك- كلّ ما خطر ببالي لكِ، فكيف أُلقِي بسنوات عمري وهي منذ بدايتها وأنتِ معي، منذ أول طريق عبرنا به سويًا إلى آخر يوم ألقيتِ بوجهي كلمات قاسية لا تشبهك!

إن أردتِ أن أتركَكِ ولا أعرف عنكِ شيئًا هل سيكون هذا كافيًا لأن أعود كما أنا؟! إنّ إجابتي أبدًا لن أعود، وإجابتك لن تكون كافية أو صادقة! ولكن عليّ أن أكون شخصًا آخر لأيامي القادمة.. أُحبُّكِ وأعرف أني أحبك، وأترك لكِ حرية لطالما تمنّاها قلبكِ، وإن لم أكن فيها! وإن لم تخبريني بذلك.

فقد رأيتها في عينيكِ.. في ملامحكِ الفاتنة، في ولعِكِ الخاص بالسفر والتغيير.. في تجربة كل الأشياء، من أكلات غريبة وحارة، وأكلَات لا أتحملها مثل السوشي وغيرها بسبب حساسيتي من الطعام، وكنتُ أحاول تجربتها من أجلك، ولكني أشتاق لك.. لمغامراتي الدائمة معك، ولأصنَعَ أيامي بتفاصيل صغيرة، من أول الأغاني التي نستَمِع إليها في طريقنا للمدرسة، وقصاصات الورق الملونة التي كنتِ تطويها، والكتاب الأسبوعي الذي كنتِ تنتظريه مني، وإن لم تجِدِي ما يجذبك بكتبي وروايتي السوداوية كما كنتِ ترينها، وحبكِ للألغاز وقصص المغامرات وشارلوك هولمز وكتب أجاثا كريستي بدلًا عنها، والتي أحببتها من أجلِكِ.. ولأنها تشبهك! حتى تذكرتُ هذا اليوم الذي خرجنا بمنتهى التعاسة من أحد الامتحانات، ولم يكن جيدًا لكلينا، وحوّلْتِ ورقتَه إلى

تنين كما كنتِ ترينه، وما زلت أحتفظ بما يشبه الطائرات منك، وكذلك وقوفك طويلًا أمام الموتوسيكلات واستجدائي لنجربها!

ديلارا:

- نفسي قوي.

- نفسِك في إيه؟!

- نفسي أركبُه يا مازن!

- يلّا يا بنتي بلاش هزار!

- بجد مش نفسك تجرّب كدا؟ عارف.. نفسِي أطير كدا من غير جناحات.. إيه مش نفسَك حتى تجرب يا مازن؟!

- انتِي مجنونة يا لارا!

- بس بس.. مش بحبك تختصر اسمي!

- خلاص يا حبيبة.

- حبيبة مين؟!

- معنى اسمك!

- لا معناه ضوء الشمس ونور القمر. ولارا بتاعتك دي يعني نورين الشمس والقمر!

- ليه ماكانش اسمك أسهل من كدا؟!

- اسمي أحلى حاجة فيّا...

وها أنا أشتاقُ إليكِ وقد صدقتِ؛ فأنتِ نور الشمس والقمر ومنذ أن غبتِ عنا.. عن أمك وعني وعن أصدقائك، وحياتنا لم تعد لنورها شمسًا كانت أو قمرًا.

أشتاقُكِ يا نور القلب...

-ديلارا-

ينسحب الصداع تدريجيًا من رأسي كلما رشفتُ من كوب قهوتي الصباحية، أحتاجها بشدة، تتلوّن بعينيّ دموعي المنهمرة منذ ليلة أمس، أشتاق أمي.. أحَبُّ مَن بالعالم إلى قلبي، مرّ شهران ولم أرها، وفقدي إياها زادَ على كامل غضبي، أريد أن ألقِي بنفسي في أحضانها وأبكي وأصرخ حتى لا يهم، ولم يعد يهُمّ أنها فعلت ما فعلَتْه بي، ولكني أتذكّر أبي وزيارة قبره، وأتساءل.. هل عندما علمْتَ بزواجها هل صفَحْتَ عنها؟! وكيف أسأله؟! فهو في عالم من نعيم؛ فلا يهمه إذًا من أمر الدنيا شيئًا.

إذًا فهي أنا من يحزن ويقهرُ ويفقد ثقته بأقرب مَن يحب، ولا يزال غضبي قائمًا عليه على ثاني أحبّ البشر لقلبي! مثل خطاباتي التي كنتُ أكتبها في مسودّتي، تساءلت هكذا كل ما مر بيننا من شجار شيء، وأنّكَ تعلم منذ فترات كبيرة يا مازن بأمْرِ هذا الزواج، ولم تخبرني شيء آخر! ولا أعرف لِمَ لَمْ أوبّخْك على هذا جيدًا؟! بل كان شجاري وصراعي مع أمي فقط وليس معك، ولكنه أيضًا جُبنُك وعدم شجاعتك وإخفاؤك عنّي أمرًا مهمًا مثل هذا.

وتذكرتُ ما كتبته إليها في رسالتي لأمي...

هذه أولى رسائلي إليكِ...

ولم أعرف كيف أخطها إليكِ...

(أريدكِ أن تطمئِنّي عليّ، وأن لا يُميت القلقُ قلبكِ، وأن تعرفي أنّي لست خائفة ولا أفقد شجاعتي، وأني أعرف أنكِ الآن لستِ وحدكِ.. هنالك من يقف إلى جوارِكِ، وأرجو أن لا تبحثي عني، سأعود يا أمي عندما أجدُ الطريق كما رغبتِ، لا تقلقي..

أفتقدكِ حد السماء، وأحبّكِ كعصفورٍ صغير فَقَدَ عشّه ولا يعرف كيف يعيش؟!

ولاكيف يعيش ؟!!)

عدتُ لفنجان قهوتي مداعبة نفسي بمقولة.. "هي إيه حكاية القهوة دي مع العمق والجو دا والرسايل والدموع؟! هو مابِنْفَعش نشرب قهوة ونبقَى تافهين عادي؟!"

اشتقتُ لعبث يوسف معي، ولم أُرِد أن أبقى وحدي بعدما خرجَت إكرام؛ فحدّثتُه هاتفيًا وخرجت إلى شوارع ميامي أنا والهواء والبحر ويوسف، واللون الأزرق يلون يومي، والسماء والبحر وعيون يوسف، ولا أدري في أيهم أذوب!

-مازن-

ساعاتٌ مرّت بالمشفَى حتى استقرّت حالة أمي، وهدأ قلبِي قليلًا من هذه الأيام، أردتُ العودة إلى المنزل، ولكني أشعر بصعوبة في ذلك من الإنهاك لليالٍ ممتدة.. كنتُ أمشِي بصعوبة، ويتحرّك جسدي ببطء شديد يشبه الآلة، وعيناي أصبحَت تشبه عيون المدمنين من كثرة القهوة وقلّة ساعات النوم، كذلك فقدَت حياتي معناها منذ صرتُ بلا صديقة، أو هكذا رأيتُ الحياة وما فقدته، ولم أنتبه لصديقتي نوران وهي تأتي إلى المَشْفَى كل يوم وتطمئِنّ عليّ وترحل، وتحمّلُها لي وللمشروع الذي ساعدتني به كثيرًا؛ فلم أكُن أُبدِي اهتمامي العام بالدراسة ولا بحياتي بأكملها، كانت لطيفة جدًا، ولم أكُن أدرك مدَى مساعدتي إياها على مدار السنوات منذ أن عرفتُها، وأنها ستكون معي بهذا القدر من الوفاء والصدق.

وقفَت أمامي لمدة أعتقِد تجاوزَت العشر دقائق تحدثني عن شيء ما، وذهني المغيب لا يرى ولا يفهم ولا يدرك! أراها أمامي تُشير لي ويدُور رأسها يمينًا ويسارًا، ومن ثم تعود لتتحدّث إليّ؛ حتى زادت الصورة ضبابية، وزادت حركات جسدها من إيماءات عديدة وإشارات وعينين جاحظتين تنظران لي في فزع؛ حتى ارتخَى جفناي؛ فلم أعد أرى نوران، وسادت الظلمة وهدأت الأصوات.

وبينما أرى نفسي بعمر العشر سنوات رأيتُكِ تقفين أمامي بفستانك الأزرق المرسوم عليه فراشات صغيرة ملونة، ثم جريتِ أمامي نحو إحدى الأرجوحات ويعلو صوتك "يلّا بينا"، وأسرعتُ أهرول نحوكِ في سعادتي الطفولية وبهجتنا التي لم يسرقها منا أحد، ولكني أمسكتُ بالأرجوحة من خلفك وهي تعلو وتهبط وأنتِ يعلو صوتك معها.

(أعلى.. أعلى يا مازن... عاوزَه أطيررر.. كمان)

وزادت ضحكاتكِ الطفولية، وزادَت دقاتُ قلبي مثل أرجوحتكِ يعلُو ويهبط معها.. حتى ما عدتُ أتحمّل! وكانت الأصوات تعلو ثم تهدأ كأنما بُعِثَت من فراغ.

فتحتُ عينيّ لأجد أمامي عينين لوزيتين، ووجهًا أعرفُه جيدًا يقابل وجهي في قرب شديد، ملامحها الملائكية جعلَتْنِي أبتسم في استسلام، ومددتُ يدي لأتحسّس هذا الوجه النضر، حتى شعرتُ بلمسته التي أفاقتني، وارتعشَت يداي من جاذبية لم أعهدها من قبل.

نوران:

- مازن! طب انتَ هتفضل ماسِك وشي كدا؟!

- احم آسف... بس إيه اللي حصل؟!

- انتَ أغمَى عليك وأنا واقفة قُصَادك.

- اممم فعلًا؟!

تأملتُ حولي الغرفة البيضاء الخاوية، ونوران تقف إلى جواري وأنا مسجَى على السرير، واقتحام إحدى الممرضات لنا في اللحظة السابقة، ثم عودتها وزميلة لها وهي تضحك وتتغامز وتتلامز كأنما رأَت مشهدًا غراميًا بهذا المشفى باهت الجدران والملامح، ولكني لا أعيبُ ظنها حقًا! فمن يراني وأنا أمسك وجه نوران بيدِي له أن يظن ما يشاء، يا لي من أحمق! وليزيد الأمر لأفقد وعي وأصير ضعيفًا يستحق الشفقة!

اتكأتُ على نفسي وحاولت أن أقف، ولكن لم يكن الأمر سهلاً، أشعر بالعجز والإحراج أيضًا، عليّ أن أنهض!

نوران:

- طب مازن ماتتكّاش على نفسك.. الدكتور قال: إنك وقعت من التعب وإن ضغطك منخفض!

- لا هقوم.. ساعديني بس.

- حاول ترتاح شوية كمان طيب.

لم أجبها وتحركت من السرير ومعها، تحاملتُ على نفسى وعدتُ إلى منزلي، ولم أكن أريد أن أبدوَ ضعيفًا عاجزًا أمامها أيضًا، يكفي ما بي من خيبات وتألم!

وقبلَ نومي أخذني عقلي بعيدًا؛ فبعض اللحظات لا تُنسَى على الرغم من غرابتها، عندما عدتُ إلى فراشي.. تذكرتُ ملامحَ وجهها وأنا أتحسّسه بيدي! وأنا أنظر إلى حسنات وجهها المتناثرة كحبّات سكر بنّيّة بوجه شديد البياض، وجهها الملائكي من أجمل ما رأيت!

-ديلارا-

بكَى قلبي ولم تبكِ عيناي..

الفقد يمزقني ولا يمكنني أن أعودَ إلى حيثُ بداية صراعي معهم، لا أريد ان أخوض حربًا لا يمكنني أن أصمدَ فيها ضدّ أحدٍ أحبّه!

الصداع يقتلني، وعدم القدرة علي التحمّل وبكائي الليلي وأنا أتهرب من صديقتي بالمنزل عندما يشتدّ عليّ شوقي إليهم، الهروب من ذاتي يمكن أن يفتّتَني، ولكنها الحقيقة..

ووجدتُني أثور داخليًا، وأحمِل دفتري وأكتب كل ما يؤلمني..

(يا ريتني قدِرْت أواجه أو حتى أقول لا.. يا ريتني قدِرْت أصرخ وأعيط، أو حتى أخبّط في الأرض.. يا ريتني! بس هيفيدني بإيه؟! وهمّا مش سامعينّي، وعيونهم متعلّقة في الفراغ، وبرضُه بُعَاد عني!)

وضعتُ يدي على صدري؛ ليهدأ، وأغمضتُ عيني عن أصوات عقلي وتوتر قلبي، إن ما حدث قد حدث، لن أغيّره، ولا يمكنني أن أعيد الزمن إلى الوراء، عليّ أن أواجه مصيري، وأن لا أفقد شجاعتي تلك التي خُلقَت من أجلي.. وأن أنصتَ إلى روحي!

(اسمعيها يا ديلارا.. اسمعي نفسك.. اسمعي روحك.. وحسّيها عاوزَه تقول لِك إيه!)

جلستُ أُنصِتُ إلى نفسي لأول مرة بحياتي تلك التي أهملتُها، حتى أصبحتُ بهذا العمر، وحتى عندما وطِأَت قدماي هذه الأرض الجديدة والحياة الممتلئة بالشغف، إلا أني أختنقُ من الداخل! وها أنا أنصتُ إلى صوتي الداخلي الحانق الذي يتسرّب إلى خائفًا مني؛ لأطمئنها وأستمع إلى حديثها بحب، وأن لا أخاف مما قد تُملِيه عليّ، حتى بدأَت تحدثني؛ فأراها بداخلي وعيناي مغمضة خارجي، ومفتوحتان تتأملها بداخلي، وها هي تخبرني..

- (سامحي! سامحي يا ديلارا! كلنا بشر.. كلنا بنغلط!

فجادلتها:

- بس أنا ماغلطتِّش فيهم؟ ليه بيعملوا فيّا كده؟!

- سامحيهم.. ماكانش هدفهم يزعلوكِي، ولا حتى يخلوكِي تتألمي.

- طب والثقة! وإني أبقى مصدّقة إنهم مش هيعملوا فيّا كدا؟! ازّاي يحصل ده؟! طب أنا والله كنت بعمل كل حاجة معاهم بحب وبكل طاقتي، فجأة كدا ألقى كل حاجة وقعِت فوق دماغي! طب إيه ممكن أحسّه أو أعيشه معاهم؟! الأهل! الحب! بينسوا كل حاجة وجعتنا بسببهم، ومش بيفكروا قَدِّ إيه سابوا جواكِي كسور مابتتصلّحش! وبيطلبوا منك إنّك تبقي زي ما همّا عاوزين وترجع معاهم عادي! عاوزاني أسامح؟! أسامح بس لسَّه قلبي بيوجعني! فهمتيني؟!

- فهمتك.. وأكيد هيجي الوقت اللي قلبِك فيه هيرتاح.. ثقي في ده!

فجأة هدأتُ وزالت الظلمة، وأنير جزءٌ مني كان معتمًا نورًا بداخلِه.. يدٌ امتدت لي! وباللدّهشة.. يدٌ أعرفها.. هي يدي! بحديثي مع نفسي لأول مرة، وجدتُ أحداً أحبه يشعر بي ويمد لي يدًا لم تُهزَم أبدًا، وأجدها أينما ذهبت.. لن أهرب منها.. لن أهرب من نفسي، لقد وجدتها أخيرًا.. لقد وجدتني!

-مازن-

العالم أكثر هدوءًا وحياة..

بعدما استقرت حالة أمي وخروجها من المشفى وتحسّنها وتحسّني معها عدتُ إلى عزلتي قليلًا.

أغلقتُ عليّ غرفتي وعالمي الخاص، ووضعتُ إحدى أجمل موسيقى لـ"Yanni"، وأخذتُ أستمع إليها في هدوء، وتوالَت القطع الموسيقية تشدو بأذني! شغّلتُ موسيقى مقطوعة هادئة "One man's dream" و"Almost whisper"..

ارتاح عقلي مع الموسيقى من التساؤلات العديدة وانحسار كل شيء بداخلي، حتى ما عدتُ أجد لي مفرًا من أيامي الباهتة القاتلة بداخلي، وغرقتُ بداخل إحدى أحَبّ المعزوفات إلى قلبي " Reflection of passion"، وأغمضت عينيّ في سكون تام.. لحظات وشعرتُ بيدِها تحيط ذراعي وأنني أحضنها، غفوتُ لدقائق.. وعندما أفقتُ تذكرتُ كيف كانت يدا ولمعَةُ عينَي ديلارا الدافئة.

وكيف أن هذه الموسيقى وعزف البيانو يشبهها في هدوئها واحتوائها لتلك التفاصيل الكثيرة التي عشقتُها رغمًا عني، ظلَلْتُ أستمع إلى موسيقايَ وأهيمُ بها سكونًا.

أمسكتُ قلَمَ الفحم وعدتُ إلى رسمها كما تراها عيناي، تُعطِي كل خطٍ من خطوط وجهها لمحة أخرى من جنّتِي المنصرمة.. رسمتها، وكانت أول لوحة كبيرة أرسمها وأعود للرسم منذ فترات طويلة شعرتُ كأنها أزمنة منعقدة، لم أعرف أن قلمي لم ينسَ، وأن قلبي لا يزال يحفظ ملامحها كأنما رسمتُها ألف مرة.

وبينما في هدوئي وخلوتي هاتفَتْنِي نوران.. كانت ملاكًا سقطَ من السماء لتترفَّق بحالي وتصاحبني؛ معروفٌ لن أنساه، أسرعتُ لمحادثتها

وقلبي يكاد أن ينهزم من محبتي لفَتَاتِي الهاربة وفتاة أخرى، لم أعلم لِمَ علقَتْ بها روحي منذ اللحظة التي فتحتُ بها عيناي بالمشفَى ورأيتها؟!

أغلقتُ هاتفي على اتفاق أن أراها وأكمل ما بدأناه من مشاريعنا سويًا، لا أعلم كيف مَرّ الوقت بعامي الأخير بهذا الشكل؟! وزادَت مشاريعي وتزاحمَت لضخامتها، هي هندسة بكل ما فيها من تحدّيَات وأوقات لا تعرف بها إن كنت تعيش حقًا أم أنك فقط تتعايش؟! وأنّكَ تسعى جاهدًا أن لا تسقط في تلك الفوهات الزمنية التي تجعلُكَ مُغيّبًا عن الآخرين؛ فتغيبُ عنهم لا إراديًا فتعودُ لتجد من أحب، ومن ترك، ومن تزوج، ومن سافر، ومن رحَل، وأنت فقط لم تفعل شيئًا غير ساعات وساعات في مشاريع لا تنتهي، ودكاترة يجيدون تعذِيبَك بصدر رحبٍ ولا يلقون بالًا لإنهاكك أنت ومن معك من زملاء القسم التعساء جدًا حياتيًا، والمتفردون للغاية بعقولهم وطرقهم الخاصة.

حسنًا.. هي حياة وعليّ أن أكملها، وسأفعل.

-ديلارا-

حملتُ جيتاري وأسرعتُ خطاي حتى بدأت الهرولة، دقات قلبي تكاد تقفز من داخل صدري، حذائي الأسود الجلد وارتفاعه من علي الأرض يعلو ويهبط؛ فيفتّت قطرات المياه وصوتها وهي تتفجر أسفله، وتساقط حبيبات صغيرة منها على شعري وشفتيّ، برودة الجو وحرارة جسدي معًا كجسدٍ مشتعل تحت المطر، أشعر بكل حركة في جسدي.. قلبي ينبضُ وأنفاسي اللاهثة تلك التي تذيب تجمّد يديّ كلما نفخت بها.

وصوتُ صدري مع خطواتي المتزايدة حتى وصلت إليهم، أكاد أتراجع لولا أن يوسف أخذ بيدي في قبضة يديه بمنتهى القوة والحزم، ولم يترك لي الخيار؛ من أن أفرّ أو في التنفس، ثم طلب مني أن أتنفّس! فكتمت نَفَسِي لثوانٍ معدودة، ثم أطلقته في تنهيدة واحدة ليهدأ قلبي.

خطوات تفصل بيني وبين هذا الحشد الهائل، والوقوف لأول مرة أمام هذا الجمع من العيون المعلّقة بِك.. مواجهة جديدة تطرأ على حياتي وفُرصَتي، وها أنتْ وحلمٌ لم أصدق أن يتحقق.

أغمضتُ عينيّ لدقائق أخيرة، أشار لي فيها أن أستعِدّ، وتذكرتُ كيف كانت لحظة نشوتي بهذا الحدث وعرض يوسف عليّ، وكيف هو حالي الآن متناقضان للغاية!

أخشى الهرب أو السقوط مغشيًا عليّ.. جسدي يفور، كيف كان هذا أمرًا سهلًا عندما أخبرني! يا ويلتي!

يوسف:

- ديلارا.. أنا عاوِز أقول لك على حاجة مهمة.

ديلارا:

- مع إنّي بَقلَق من البدايات اللي فيها نَدْهِة الاسم دي.. بس قول، معاك يا يوسف!

- يارب يبقى دا الرد اللي هاتقوليه بعد ما تسمعيني.. إنّك معايا!

سقط قلبي حينها ولم أفهم ماذا يقصد؟ هل هذا حبٌّ أم شيء آخر؟! انتهتْ وعيناي التي شردَت عنه بعيدًا لدقائق.

يوسف:

- ها أقول؟

- أيوَه.. تقصد إيه؟

- فيه حفلة جات للفرقة ومش حابّين نرفضها، وانتِي بقالِك فترة بتتمرني معانا، وحقيقي عزفك رائع.. إيه رأيك؟! ها تعزفي معانا في الحفلة؟ هتبقى أول حفلة ليكي.

- .....

- وأول حفلة حقيقية لنا.

- موافقة جدًا.

حضنته ولم أعرف لماذا انجرفَت مشاعري؟! ولكني وقتها شعرتُ أن قدميّ تعلو على الأرض من الفرح المتناثر حولي، والحقيقة أيضًا أنه رفعني عندما حضنتُه؛ فقُصرِي وتعلقي به يشبه فتاة صغيرة.. رفعها عاليًا.

وهكذا عدتُ بذاكرتي لوقوفي على المسرح قبل أن تدخل فرقتنا عليه، قلبي المضطرب.. وكلّي ينتفض نشوةً وقلقًا وسعادات مؤجلة كثيرًا.

هكذا الأحلام يمكن أن تتحقق! أن تأتي إليكَ ليس حبوًا أو زحفًا أحيانًا، بل كثيرًا تأتي إليكَ طيرانًا حتى تكاد من صدمتك أن تتركها، ها هي أحلامك صارَت واقعًا، لطالما حلمتُ بهذا يومًا.. أن أعزف موسيقاي، وبينما ينبّهني يوسف أن أستعد.. لا أدري كيف انتقل جسدي في تلك اللحظة مع يوسف إلى مازن.. كأنما أبحث عنه، أراه ولا أراه! توقفتُ حتى سمعتُ صوته المعلق بعقلي يتردّد بذهني.

(سيبي نفسك للحلم.. وطيرِي بقَى)

وومضَت بقلبي وَخْزَةُ اشتياق وفرح، ابتسمت ليوسف الذي تعلّقَت عيناه بي حد الثمالة.

- يلا بينا.. أنا جاهزَه..

-مازن-

إنارتُها تهتز بداخلها.. تتثاقل في بُطءٍ، تهدأ ثم تزداد علوًا في ثبات شديد، ثم تهدأ ثانية.

ظلّت عيناي مثبّتة على تلك الشمعة الموضوعة على الطاولة؛ حتى تناسيتُ كل ما يحيط حولي، ولم أرَ بعدها شيئًا، كأنما تتراقَص في عينِي أنا وليست أمامي، انتبهت لنوران وهي تضحك على شرودي، لم أُجِبْها في البداية وعيناي معلقّتان بالضوء.

نوران:

- إيه؟ الشمعة حلوة قوي كده؟!

- معلّش ماكنتش مركّز.

- تصدق حكاية قطع النور دي حاجة حلوة، وفكرة إننا نقعُد في نور الشمعة دي خلّاني أفصِل شوية.

- أنا عقلِي تاه مني خالص.

- لا انت عقلَك مابقاش معاك خلاص.

- في دي عندِك حق.

تهاوَى ضوء الشمعة على ظلّ المنضدة، كفتاة توقفت فجأة عن الرقص وألقَت جسدها أرضًا من الإنهاك، عيناي ما زالَت معلّقة بالشمعة وهذا اللهب العجيب الذي يتمايل معي، تثاقلَتْ عيناي معه، وشعرتُ حينها بلمسات حانية تحِيط ظهري، دِفءٌ لم أعهده بعدما غزا جسدي البرودة، وصار جسدي وأطرافي باردة لا يصلها الدفء كالأموات.

رعشاتُ جسدي مع انسياب هذه اليَد نحوي كتدفق المياه الدافئة على الثلج، كانت يدَ نوران وهي تفِيقِنِي من شرودي، وحدثتني وعادت تسألني:

- مازن انتَ كويس؟!

- ....

- مازن انتَ شكلك تعبان! النور جِه من بدري وانتَ لسّه باصِص للشمعة!

- أنا فعلًا تَعْبَان.. محتاج أروّح.

تثاقل لساني في الرد على نوران صديقتي اللطيفة، وتمنيتُ أن أكون أكثر قوة أمامها، ولكن يبدو أنّني أنزلقُ إلى أقصى الهاوية في هذه المرحلة، وهي من يشاهدني.. ولا أعرف لِمَ تفعل ذلك؟! ولا ماذا عليّ أن أفعل؟!

تحركتُ عودة للمنزل وعودة للجسد الفارغ من أي روح، وإن أردتُ أن أبكي لا أجد دموعًا تسقط من عينِي حبيسة صمت وبوح، ولا حتى تسقطُ شفقةً بي وترفقًا بحالي؛ لتريح بعضًا مني من بعض، وتهدأ أوجاعي، كأنما صرتُ أجسادًا متلاحمة من بشر مقيّدِين ببعضهم البعض يتلاحمون في شدة، ويقفون على قرصٍ من الخشب كرقصة من الفن التعبيري، وهذا القرص الخشبيّ يدور ويدور حول نقطة الْتقَاءٍ واحدة ولا يلتقون؛ فهم أجساد تتثاقل على بعضها بعضًا، وتميل من أقصَى اليسار إلى أقصى اليمين بلا هوادة، ثم يسرعون في خطاهم حتى تشعر معهم بالإنهاك وأنك تدور معهم، لا يتوقفون ويمسكون ببعضهم البعض، ثم يتركون أيديهم في تعجّل، وبعد قليل ينهكُ أحدهم ويسقط على الأرض فجأة، ولا أحد يهتم لسقوطه! بل مستمرّون في الركض على هذا القرص الخشبي الدوّار؛ حتى يسقط شخص آخر.. وهكذا، حتى يسقطون جميعًا ويظل القرص يدور حول نفسه، وهم بلا حركة.. بلا روح.. بلا حياة.

رأيتُ هذا المشهد الخاص بالفن المعاصر، وعندما عدتُ من عند نوران شعرتُ حينها أن هؤلاء جميعًا بداخلي، ويتساقط مني كل يوم شيء آخر.. ولا أعود، وتدور الحياة ولا أجد منها مفرًا أو خلاصًا، توقّفْتُ عن التفكير وألقيتُ بجسدي على سريري كما فعلوا، وتركتُ لعقلي أن يدور حتى أنام، أو فقط أن يُغشَى عليّ من التعب.

-يوسف-

أمسكتُ بيدها المرتجفة وسحبتُها خلفي نحو المسرح، تراجعتُ ووقفتُ وأنفاسها تتلاحق مع خطواتي، ثم كتمَت أنفاسها.. عيناي تراها أجمل فتاة، ومنذ أن رأيتها أول مرة في حفلة مسار إجباري وهي تقفز أمامي على أغانيهم، وأتذكر حتى تلك الأغنية.. (ماتخَفْش من بكرة) وقلبي إليها يميل بشعرها الغجري الأسود وعينيها الداكنتين، وبراءتها وسحر صوتها، لا أعرف ماذا فعلَت لتفتح القلب لها كأنما لم يكن هناك مجال إلا ذلك!

عدتُ للحظتي الحالية، وأمسكتُ بيدها لتقف إلى جواري، قلبي ينبض أيضًا من الحَشْد، ولكني أشعر بالشجاعة لوجودها معي وأثق بها تمامًا، استمددتُ منها نورًا من هالتِها تلك التي لم أستطع ألّا أراها، وبدأَت الحفلة وهي إلى جانبي، كما عزفنا معًا وامتزج صوتانا معًا لشهور عدة، نعزِف ونغنّي سويًا، ونضحك ويطرب لها قلبي، ويغني لها: فهي وحدها من يُشعِرَني بالسعادة، تعالَت المزيكا ويعلو معها نبضُ قلبي ودقّاتُه المتعجّلة بأن أعترف لها بحبي، بل بجنوني بتفاصيلها، والبهجة التي جلَبَتْها معها إلى الحياة بأكملها.

الحبُّ كما لم أكن أظن يومًا أني سأعرفه، أو أن هناك من خُلقَت لتُرضِي قلبي أو ذوقي، أو كما كان يقول أصدقائي لي:

"انتَ يا يوسف اللي هتحبّها دي لازم تجنّنك وتسرق حِتّة من عقلك كدا؛ عشان بس ترضى تقع في حبها وتبطّل تخلّي بنات الناس تعجب بيك وتحبك.. وتحسّ بقى".

كنتُ أشعر بعدَ هذه الكلمات أنه ليس هناك امرأة تقدر على ذلك، ثقتِي بنفسي وكل من رأته عينَاي من فتيَاتٍ لم أُلقِ بالًا لإحداهن، حتى رأيتكِ، وها هو عقلي لم يُسرَقْ "حتّة" منه، بل لقد سُرِقَ كله، عزفُكِ على أوتاري وصوتي يشدو لكِ ما يرجوه أن يملأ قلبك.

لم تكن حفلةً تُنسَى، أو يمكن أن أجد فيها ما يشغلني غيركِ.

(غيركِ يا ديلارا..)

(لقد جُنِنتُ بكِ..)

(آآآآه خطفتِني، وعليّ الآن أن أجعلكِ أنتِ كمان تحبّينني وأخطفكِ..)

-نوران-

آمنتُ بتلاقي الأرواح، وأنّنا كنّا معًا يومًا في عالم الذّر، وأن أرواحنا اختارَت بعضها بعضًا في هذه الرحلة، وأن كل ما حولنا ليس بالصدفة، إن حياتي كلّها أيضًا من اختياري، وأن من أعرفه الآن له دور في هذه الرحلة، ولي أيضًا دورٌ مهم كَبُرَ أو صغر، أو ربما هي رسالة عليها أن تصل في حينها.

لم أكُن أهتم بكل ذلك قبلًا، كنتُ أعيش حياتي كما رسمَهَا لي أهلي؛ أمّي وأبي، لا إرادة لي في ذلك، ليس كما كنتُ أظن؛ فإني أُعطِي كل ما في إمكاني لأُرضي فقط مَن حولي، ولم أكن أعرف حتى ماذا أردت لنفسي! حتى هذا اليوم وهذه الحادثة بعدها تغيّر كل شيء في نظري، ولم أعُد "نوران" التي عرفَها الجميع من قبل.

تلك الحادثة "حادثة الموت" كما كنتُ أقول، وهي لي "عودة الحياة " ولحظة الميلاد الحقيقية لي، كنت عائدة من أحد مشاوير أمّي التي طلَبَتْها مني، ولم أكن أرغب فيه، ولكن هو ذلك الأمر سواء شئتُ أم أبيتُ في جدول حياتي، كنت لا أهدأ.. مشاوير عدة.. أحداث متواصلة.. خطوبة أخي.. عقود.. أوراق كثيرة من الطلبات، حتى من أختي الصغيرة، دفع أقساط، كل هذا وكلّيّتي ومشاريع لم تبدأ حتى تنتهي بعد، كل هذا بعقلي وأكثر، وما إن أنتهي من شيء حتى يأتي شيء آخر بعده، قد كان عقلي شاردًا جدًا يومها، وأسوقُ في عجلة من أمري حتى أتَت تلك اللحظة، لم أرَ بعدها شيئًا، صوت الموسيقى العالية بأذني.. والصوت الدافئ لـ"ريم بنا"، ولكن عقلي لا يدرِك ماذا يحدث؟!

حتى توقّفَ كل شيء، وصارت السرعة التي أسوقُ بها سيارتي مثل مشهد من فيلم ما مصوّر بالتصوير البطيء... فلاشٌ قوي اخترق بقوة عيني؛ فأعماهما للحظة، ثم مقود السيارة يدور في يدي.. وتدور السيارة كألعاب الملاهي التي كنتُ أعشقها في صغري، ولكنني لستُ بالملاهي، وليس معي أحد، ولا قدرة لأعيد توازن السيارة التي تدور بي

على الأرض، وأنا وهي نرتفِع بالسماء حتى غابت الصورة، وبعد قليل توقفت الموسيقى.

من بعدك لا شيء يهم
ضوء القمر هدوء الليل، أو لون الخد
من بعدك لا شيء يهمّ
ارتجاف القلب.. اللمعة في العينين
أو لمسة اليد.. من بعدك لا شيء يهمّ
من بعدك لا شيء يهمّ
طعم القهوة.. سحر التبغ.. أو نشوة الموجة
في الجزر وفي المد..
من بعدك لا شيء يهمّ

ومنذ أن عادت إليّ روحِي صرتُ أرى كل شيء مختلفًا، لقد عدتُ، عدت إليّ؛ فقد كنتُ مغيبة بعمري ووجودي بهذه الحياة، وها أنا رأيت الموت، بل ولدَتْنِي الحياة وعادت إلى روحي المنهكة من الحبس بداخل جسدي.

عندما نظرتُ لعينَيْ مازن وهو في المَشْفَى رأيتُ فيه نفسي، رأيتُ فيه حياتي القديمة مثلما كنت أفعل من إعطاء الجميع دون نفسي، رأيت روحه تُريدُ أن ينتبه.. أن ينصت إليها، وعندما وضعتُ أمامه الشمعة كنتُ أنير قلبه، وأن يرى النور؛ فالظلام يحيطه، أشعر به.. وأتذكر نفسي فيه.

أوصلتُه يومها وعدتُ إلى ذلك اليوم عندما حمل جسدي محاطة بدمائي، لا أستطيع الحراك، مهشّمة القدمين وفاقدة لقدرتي علَى التحدّث، أصيبَت حنجرتي كذلك؛ فلا يمكنني أن أنطق بشيء ولا أشعر بجسدي، ألَمٌ لا يفوقه شيء سوى أن روحي تحيطني وعيناي تفيضان دمعًا أخرص، وقلبي يبتهل إلى الله أن يراه.

(فكيف يراه وهو معه لا يغيب.. فوالله أراكَ وأراكَ وأرعاك، هكذا كان وهكذا رأيتُ الله..

أنار قلبي وروحي)

-مازن-

(حلمتُ بكِ!)

وجدتُني أكتب إليها وأحكي لها هذا الحلم..

لم أعلَم كيف مرّت الشهور دون أن أراكِ فيها، هدأَت الأيام رغمًا عنّي ومضى الوقت.

كتبتُ إليها، وإن لم تصل الرسالة كالبقية ولن تراها، وعدتُ بعدها إلى رسوماتي التي زادت حتى امتلأت الغرفة من لوحات بظلالِ الفحم، وأخرى اقتحمَتْها الألوان كما كنتِ تقتحمينَني وتزاحمَني ملامحك في كل من أعرفهم، أراكِ دائمًا أمامي.. وبملامحك وما تحبّينه في الحياة من القهوة والبحر والألوان، رسمت بخطوط سوداء عيونًا تشبهني وملامحَ ظننتها في البداية ملامحي وأني أرسمني، ولكن فيما بعد ذكّرَتْني بصورة قديمة لأبي في شبابه، تشبهه كثيرًا، ليس الملامح فحسب.. وبل الروح فيها تشبهه كذلك.

رسمتُ فتاة تشبهكِ كثيرًا، ولكنها أكثر حرية وانطلاقًا.. ترقص في لوحة وتطير في لوحة أخرى، لها جناحان.. كما لم أرَكِ من قبل.

ورسمتُ فتى وفتاة يمسكان بأيدي بعضهما البعض، تُذكّرُني بنا عندما كنا في أواخر الدراسة وقبل دخول الجامعة، وكيف كنتِ في حالة من التوتر حينها، والشعور بأن كل شيء سيتغير! فأطمئِنُك، على الرغم من أني لم أكن أقل منك بهذا الشعور، ويزيده الشعور بالفقد لأقرب أصدقائي.

أتذكر هذا اليوم جيدًا، كنا نتمشَّى بشوارع المعادي يدًا بيد.. تحدثنا كثيرًا حول الأماكن والسفر والمغامرات التي تريدِين أن تقومي بها، وعن حبك للموسيقى، وعن قراءتي الكثيرة، وحبّكِ لشعر غسان

كنفاني ورسائله لغادة السمان، وكيف يعيش الحب هكذا بعد كل هذه المعاناة، وأنّكِ لم تعرفي الحب قبلًا، وكيف كنتُ أحدّثكِ أن الحب مثل اللص لن نشعر بأنه أتى إلا عندما يرحل بما وجده في غفلة منا! ولم أكن أظن أن هذا اللص قد سرق قلبي مني بالفعل حينها.

فتذكرني بإحدى رسائله لها، وأراكِ فيها.

(إن لي قُدرة لم أعرف مثلها في حياتي على تصورّكِ ورؤيتكِ، وحين أرى منظرًا أو أسمع كلمة وأعلّق عليها بيني وبين نفسي، أسمع جوابكِ في أذني، كأنكِ واقفة إلى جواري ويدكِ في يدي. أحيانًا أسمعكِ تضحكين، وأحيانًا أسمعكِ ترفضين رأيي، وأحيانًا تسبقيني إلى التعليق، وأنظُر إلى عيون الواقفين أمامي؛ لأرى إن كانوا قد لمحوكِ معي!)

من رَسَائل غسَّان كنفاني إلى غَادة السَّمّان

وهكذا بعد مرور أعوام حتى آخر عام بالجامعة، وندرة لقاءاتِنا مع انشغالي وانشغالك ومحاضراتك الكثيرة، ومشاريع كليتي التي لا تنتهي؛ حتى مرَّت السنوات شامتة فيّ وساحقة لي، وبتردّدِي وعدم اتخاذ قراراي الدائم نحوكِ.

وعندما تركتُ يديكِ التي وضعتِها بيدي وبعدكِ عني؛ شعرتُ بهذا الحب بعد فوات الأوان، ورأيتُ في عينيكِ لمعة لن أنساها قطّ، جعلتُ ما بداخلي من مشاعر يتصدع.. كجبل ظلّت المياه الدافئة تتخلّلُه حتى تفتّت الصخور وتساقطَت؛ لتعلن عن شلالها الجارف بداخلي، ولكني بعدها صِرْتُ حانقًا منها؛ فبعدما أظهرتِ بي ما لم أكن أعلم أنه موجود بداخلي، وأزحتِ الركود الذي أُقِيمَ عبر عصور بداخل فتًى ورجلٍ لم يعرف الراحة يومًا لحظة واحدة، احتضنتِهِ فيها للحظة.. ثم تلاشت تمامًا، وعاد هو مرة أخرى لكهفِه المظلم لا يرى شيئًا.

-ديلارا-

ارتفعَت قدماي عن الأرض.. يداي ما زالتا ترتجفان والتصفيق حولي يزلزل قلبي، شعرتُ بالحرارة والبرودة يسيران معًا بجسدي! ورأيتُ بين الصفوف عيونَ من أحبهم كأنهم معي، يخفقُ قلبي من شدة حماستي، يكاد أن يوقف النبض لتهدأ جوارحي، لم أشعر بهذا التجلّي والانتشاء بهذه الدرجة إلا في هذه اللحظات.

عيناي تعلّقَت بالإنارة الشديدة البيضاء أمامي، رأيتُ بها عينَي أبي الراحل يشاهدني ويبتسم لي، رأيتُه يقترب مني حتى كاد النور يلامس وهج وجهي، شعرت كأنما تسلّلَت يداه لتمتدّا لي، إلى أن شعرتُ بيد أخرى سحبتني؛ لأعود من تلك اللحظة النورانية لأرض المسرح.

قدماي اللتان كادتَا أن تطفوَا بي في الهواء ها هما ترسوان مجددًا، وقلبي النابض انتظمَت دقّاته وحرارة يدي تسرّبَ إليها الدفء، ثم سحبتني يداه قليلاً للخلف؛ ليرفع عن وجهي المتوهج الضوء الشديد الوامض بعيني..

ديلارا.. ديلارا...

تنفستُ ورأيتُ يوسف يشير إليّ أن أراه، كان كل شيء حولي يسعدني، يبتسم قلبي، ووجهي حوله ذبذبات تشبه الفراشات تقبّلني، وعينا يوسف التي تشع بالحب.

يوسف:

- عزفتِي حلو قوي يا ديلارا.. أنا فرحان جدًا، فرحتِك كمان باينة في عينيكي.

- انتَ مش عارف انتَ عملت فيّا إيه؟! دا كان حلم عندي يا يوسف.. حلم جوايّا ماكُنتش عارفَه إنه هيتحقّق كدا.

- ربّنا حقّقُه.. تعالي لسّه عاوزك!

- أوك.. معاك يا يوسف.

خرجنا من المسرح مع باقي أعضاء الفرقة في حالة انتشاء عارمة، وبهجة انتشلتنا جميعًا من فترات التمارين والعزف والمشي ليلًا حتى بوادر الفجر، نغني ونضحك بشوارع الإسكندرية، كانت أجمل ما مررتُ به منذ أن قررتُ أن أحيا كما رغبت يومًا، حتى جاءت هذه الحفلة، وها أنا أشعر أن الدُّودة قد خرجَت من الشرنَقَة وجناحاها يخفقان وقلبها يردّد الحلم يتحقق.. حتى باغتتني لحظة صمت.

وقفتُ فجأة.. شعرتُ بأن شيئًا ما سيحدث، أو أن هناك شيئًا ما ناقصٌ، حركتُ رأسي يمينًا ويسارًا رافضةً أن يتغلّب عليّ هذا الإحساس، أريد هذه البهجة وأن لا ترحل سريعًا، وأن تبقى معي ولا تتركَني كما فعلَت منذ سنوات ماضية في عيد ميلادي الحادي عشر، عندما كنت في غاية السعادة أرتَدِي فستاني الأزرق الملوّن بفراشات جميلة ملوّنة، وأجري بمنتهى السرعة؛ ليرى مازن هديتي من أبي العائد من السفر، والذي كان يسافر ويتركنا أنا وأمي، حتى وقفتُ فجأة أرى مشهدًا.. كأنما تمّ تنويمي مغناطيسيًا.. أمي تصرخ.. أبي يتهاوَى على الأرض.. الجميع يحتشد حوله، يؤخذ بيدي وأكاد لا أرى من الزحام حوله.

أيام وشهور مضَت وأبي في حالة شلَلٍ إثر صدمة عصبية أفقدَتْه الحراك، سنوات تتوالى وأبي أَحَبّ من أملك يعيش معنا على كرسي متحرك، يحدثنا ببطء بعدما عانى لفترات وصمت كبير، ولكن لِمَ أشعر بهذا الألم في هذه اللحظة؟! أردتُ أن أنسَى وأن لا أتذكر، ولكن وجهَ مازن عاد إلى ذهني يطمئِنُني كما كان يفعل كلّما تذكرت هذه الحادثة، ووفاة أبي بعد ذلك بسنوات، هدأتُ ودمعَت عيناي بشدة، رآها يوسف ممسكًا بيدي.. يالله للحماقة أبكي وأنا سعيدة!

-يوسف-

أعشقها..

أردتُ بعد الحفل أن أقوم بخطف ديلارا.. إنّ شعوري نحوها يتزايد، كمن رأى نجمة ساقطة من السماء ويريد أن يمسكها ويأخذها بين يديه..

She is my wish

She is my fallen star

أمسكتُ يدها كما هي عادتي رغمًا عنها، وكلّما تريد أن تترك يدِي أزيدُ إحكام قبضتي على كفها الصغير.. ابتسمَت إليّ ثم شردت ودمعت عيناها، إن قلبي يهتز كلّما شعرتُ أنها منزعجة، ولم أكُنْ أريد أن أراها هكذا، أريدها سعيدة، أو على الأقل ألّا أتركها تتألم؛ فنظرت إليها طويلًا حتى تحدثتُ إليها:

- كنت فاكر إن البحر الحاجة الوحيدة اللي بحِبّ أبصَلها، بس واضح إني طلعت غلطان!

خَجِلَت من مغازلتي لها، فأكملت:

- مش البحر بس اللي بحب أبصّله!

- بتضحّكني يا يوسف لما بتسكُت وفجأة تقول لي جملة كدا ماأكونش متوقّعاها!

- اممم طب إيه رأيك بقَى نروح نشرب حاجة أو نقعد شوية على البحر؟!

- إيه! دلوقتي؟!

- أيوَه.. يعني وراكِي إيه؟!

- لا.. انت مش شايف الساعة كام؟ احنا عدِّينا نص الليل من بدري! يعني لو حد ضايقنا!

- حد ضايقنا؟! نعَم حضرتك؟ واحدة صاحبتِك أنا؟ هو انتِي مش معاكِي راجل ولا إيه؟!

-هههه لا ما أقصدش!

- شكلك تقصدي.

- شويّة! رد فعلَك ضحّكنِي قوي.

- طب يلَا بينا بقى.. اركبي!

أمسكتُ يدَها ولم أُرِد أن تفلتَ مني أو أن تهرب حيثُ لا رجعة، لا أعرف لماذا أتاني هذا الشعور فجأة؟ ولكني أخذتُها من يدها وانطلقتُ بالموتوسيكل خاصّتِي نحو الشوارع الواسعة والطرقات التي تفتح لنا ذراعيها في سعادة، ولم أكن أعلم ما مدى سرعتي؛ فقد كان قلبِي يقفز فرحًا!

وكل ما فيّ يسارع الطرقات؛ ليصل لمكان أبعد وأبعد، وأن تكون هي أقرب لي ومعي!

-ديلارا-

قلبي يكاد أن ينكمش..

حاولتُ أن أهرب من مخاوفي، وهذا ما شعرتُ به لحظتها، على الرغم من سعادتي السابقة والحفلة الرائعة، إلا أني أشعر بانقباض قلبي! لا أعرف لماذا؟! ولكني كنتُ أريد ان أتحرّك لعل ما بي يذهب، ولكنه حقًا يزداد!

أمسكتُ بيوسف وحضنته من الخلف.. كان مسرعًا للغاية أزيَد من اللازم، ولكنه يحب السرعة على أية حال، وبينما نمرّ بالطرقات ونلتهمها في اندفاع شديد حتى جاءتني رؤيا..

رأيتُ أمي لوهلة كأنها أمامي، ورأيتُ بعدها رؤيا أخري وكأني نُقِلتُ لعالم آخر..

رأيتني أرتدي ملابس غريبة، بيضاء الشكل، وشعري ذهبي وطويل، وملامحي لا تشبهني في زمان آخر بعيد، وأجري مسرعة في غابة ويتسارع نبض قلبي كأنما خرج من صدري، كنتُ ممسكة بفستاني الأبيض الذي يحيطُه رداءٌ قصير من الجلد البُنّيّ، يبدو أني كنت أهرب من أحدٍ ما؛ فالتفَتُّ خلفي وأنا ألهثُ حتى توقّفتُ فجأة، وسمعت صوتَ حوافر حصان، وصوتًا ما خلف الأشجار الكثيفة، وبينما أترقّبُ أن يظهر هذا الشخص أمامي؛ حتى التقطَت عيناي ضوءًا ما ينبهني لواقعي، ولكني عدتُ لرؤياي رغمًا عني، واقترب منّي هذا الفارس على الحصان، شعرتُ أنه مازن في ملامح أخرى أكثر فتوّة وقوة، وعندما كنت أنظر إليه خائفة رأيته يُخْرِج سهمًا من خلف ظهره ويضعه على قوس بيده، ويصوّب نحو أحد ما، فزعتُ وأمسكتُ ردائي هربًا، وعدتُ لعالمي..

أغمضتُ عيني لثوانٍ، ولكنها كانت الأسرَع والأكثر هلعًا، فقدتُ توازني وكذلك يوسف، و"الموتوسكل" الذي يقوده يوسف يطير بنا

نحن الاثنان، إن قلبي بالفعل لُفِظَ خارجي، لقد فَقَد يوسف تحكّمه به، ويعلو صوتي صراخًا مدويًا، وانفلات ذراعي من حول خصره وسقوطي، حتى توقّفَ كل شيء ووجدتُني على الأرض أرتجف، يتقاطر الدم من يديّ ويلوثّها بالتراب، وإلى جواري يوسف لا يتحرك، ولكني زحفتُ نحوه، وتألّمتُ عندما حاولت الوقوف على إحدى قدميّ، وتأوهتُ ولمستُ جرحًا ما بها؛ يُدمِي بنطالي ويدي، شعرتُ بالخوف وأن ليس هناك أحدًا حولي، تعجبتُ كثيراً.. بالفعل لا أحد.. كيف هذا؟! وماذا حدث؟! ظلّت الصور الضبابية تُغْشِي وجهي ولا أعرف ماذا حدث؟! وماذا أفعل غير صراخي المستمر! لينجدنا الله...!

-مازن-

سيمر.. كل ما يؤلمك سيمر..

كل ما تشعر به الآن سيمر..

ظلّت كلمات نوران تتقاذَف في عقلي كحَبّات من اللؤلؤ المضيء، كانت نورانية جدًا، كل كلمة تنطق بها وكلّ تصرف يشعرك كأنما أحد الملائكة يلمس روحك، ليت أنا فحسب من شَعُر بذلك من نوران، بل كل من رآها حتى وإن لم يكن على عهدٍ بها وبطاقتها وهالة النور التي تحيط بها، كلماتها تشعرُني بهدوء نفسيّ بعد تلك الفترة العصيبة، وخروج أمي من المشفى، وعودة القليل من الهدوء إلى نفسي.

وبينما أنا في طريقي إلى المنزل في وقت متأخر، ولكني كنتُ أشعر بالاختناق كنتُ أحتاج لتلك التمشيَة القصيرة بمحيط منزلي، توقفت لوهلة.. تسلّلَت إلى أطرافي برودة ما، خدَرٌ نفض قلبي وجعله يضطرب.. شيء ما قد حدث، أسرعتُ للمنزل لأطمئِنّ على والدتي، وجدتُها بخير، إلا أن اضطراب قلبي ما زال باقيًا وبرودة أطرافي، عندها تذكرتُ ديلارا.. ارتعاشة ما خفِقَت بصدري، وتغلّف كل ما فيّ بالرهبة، وحل الصمت لوهلة، حتى قطع هذا الصمت رنّة رسالة ما على هاتفي.. قرأت:

(الْحَقْني يا مازن)

رسالة من رقم مجهول.. محتواها جعل قلبي يتجمّد خوفًا! إنها هي.. إنها فتاتي!

-نوران-

المحبّة عندما تملأ قلبك لا تعود بعدها أبدًا وحيدًا..

أيام وشهور مرَّت وأنا راقدة بفراشي، ومن ثم كرسي متحرك، كُسِرَت كلتَا قدماي، وتضررت حنجرتي؛ ممّا جعل الصمتَ لي رفيقًا والدمع ونيسًا لقلبي؛ فقد كان قلبي ينفطِر كلّما نظرتُ لنفسي بالمرآة، أو نظرتُ نحو قدميّ..

ويا لها من لحظات مرَّت وتبدّلَت! ولم أعد نوران أو حتى نورًا واحدًا، أظلمْتُ أنا من الداخل وخارجي صار باهتًا مثل أشباح الأفلام البائسة، ويومًا بيومٍ اقتربتُ من سجادة صلاتي تلك التي لم أقربْها لسنوات، وإلى السبحة التي كانت تُعلَّق للزينة بسيارتي، ولآيات تُتْلَى بغرفتي فتمسح ما علقَ بقلبي من معاناة، ولكني ما زلتُ أتألم وأبكي: حتى أصَابَ قلبِي الحزنُ، وجسدي واهن لا يحتويني؛ حتى بليلة كحيلةٍ كأنّما مرَّت بي روحي تؤنسني، وعبرَت خارجي؛ فألقَت عليّ نظرة صادقة من الحب فابتسمَت لي، روحي اتصلَّت بي ولم أكن أعلم أن القلب شيء، والعقل والجسد والنفس شيء آخر، أما الروح فهي ملتقى الأنوار.

دمعَت عيناي فرحًا منذ عقود الحزن تلك، والله ما شعرتُ بها حتى ظلَّت تحيطني وتزيل عوائقي الداخلية، كحبات العقد المنفرط حبُّهُ حبّةً؛ حتى علمتُ أن روحي في ملكوت آخر وحيوات أخرى!

راقَت إلى روحي حينها العديد من قصائد ابن عربي، وابتهالات ترتقِي بي حيث لم أعد للأرض بعدها، ولم أعرف أن الروح إنْ ارتقَت

ورأت لا تعود لسابق عهدها أبدًا.. استعذبَ القلب وعرفتُ الهوى، كما قالت القصيدة..

عرفتُ الهوَى مذ عرفتُ هواكَا..
وأغلقتُ قلبي عمّن سواكَا..
وقمتُ أناجيك يا مَن ترى خفايا القلوبِ ولَسْنا نراكَا
أحبُّك حُبَّيْن؛ حبُّ الهوى وحبًا؛ لأنكَ أهلٌ لذاكَا
فأما الذي هو حُبّ الهوى فشغلي بذكركَ عمّن سواكَا
وأما الذي أنتَ أهلٌ له فكشفُكَ لي الحُجُبَ حتى أراكَا

ووصل الحب قلبي؛ فرأيتُ المحبّين رؤيا القلب قبل أن تراهم العين، فدعوت الله أن أراهم؛ فبعث لي صحبة لم أكن أرجو خيرًا منهم صدقًا.. عائلة الروح والمحبين، جلسات من دروب الحب قذفَت بقلبي محبتهم ومحبة العاشقين، وما أجمل الحب الإلهي إن فتح نورًا بالقلب!

أخذَتْنِي إحدى صديقاتي لأحضر معها، ولم أتردّد، وإن جال بخاطري بعض الرهبة ولوعة الشوق بعدما حكَتْ لي عن جمال الدروب وعن صدق الحب الإلهي، وما كنت أريد غير الرفقة؛ فكانت!

شهورٌ مرَّت كومضات سيارات مسرعة بمرضِي حينها، وأزمنةٌ مرَّت بالروح، أرى وأسمع وأحب (الله) الحبيب الودود الرحيم، هكذا كان الحب والودّ والرحمات تملؤني، وأنارت ظلمتي.. نورًا عاد لي حتى شفيتُ، وشُفِيَ القلب أيضًا.

-ديلارا-

ومضات تتناقل بعيني ودموعي الساقطة حتى هدأت، صوته الهادئ أعادني لسابق عهدي، كيف لصوت أن يجلب لقلبكَ هذا الشعور بالأمان معه، وإن كان صاحب الصوت ليس معك؟!

انتظرتُ خارج غرفة المَشْفَى بعدما نقل يوسف بالإسعاف بعدما اتصلت بهم، ولا أشعر بجسدي، كأنما فُكِّكت منه أجزاءً كانت تتصل ببعضها بعضًا، ولم أعد قادرة على الحراك أو الانتباه.

(طقطقة أصابع بجانب أذني)

رأيتُنِي أمام البحر أقِف هناك، وإلى جواري يوسف! نظرتُ إليه مبتسمة؛ حتى سحبتني عيناه الزرقاوان بداخلهما، وبينما أنظر إليه وجدتُ يدًا أخرى تسحبني بعيدًا عنه.. إنه مازن، لم يتحدث إليّ، بل سحبَنِي دون أية مقاومة منّي، لم أعتد على جرأة مازن؛ فشعرت بالخوف منه، ولكنه نظر إليّ وكانت عيناه تملؤهما الحيرة، عدتُ ببصري حيث يقف يوسف ولم أعُد أراه، وكلما أدرتُ وجهي لأبحث عنه لا أجده، مرّ العديد من الناس حولي وما زلتُ لا أرى يوسف، حتى قام مازن بلفت انتباهي نحو..

(طقطقة أصابع بجانب أذني)

أصوات مختلطة حولي، ورائحة غريبة تغزو أنفاسي حتى انتَهَت، فتحتُ عينيّ لأراني ممدّدة على أحد أسِرّة مَشْفَى، والرائحة الغريبة التي لا أحبها كانت هي رائحة تلك المستشفيات التي أكرهُهَا منذ مرض والدي، رأيت حولي ممرّضَتَيْن وسيدة أربعينية لا أعرفها، قامت إحدى الممرضات بممازحتي، ولم أقوَ على أي مزاح، وبيَدِي "كانولا" تذكّرتُها قبلًا عندما تُوفّيَ والدي وضعتها عندما أغْشِيَ عليّ، انهرتُ تمامًا وظلَلْتُ أبكي، حتى تلك السيدة ظننتها أمي لوهلة، كانت تقف إلى جواري

بالمَشْفَى بعد صدمة وفاة والدي منذ سنوات بعيدة وانهياري، اضطربَ قلبي لتذكري هذه الحادثة، وأردت أن أقِفَ على قدمي تاركة هذا السرير، ولكن يبدو أنني لن أقوى على ذلك.

لا أدري كم مرّ من الوقت، ولكننا صبَاحًا وأنا أغفو وأصحو وأبكي كلما اضطربَ قلبي، علمتُ بعدها أن السيدة هي أم يوسف، وهي تمر لتطمَئِنّ عليّ من فترة لأخرى، لماذا أشعر أنّني اتصلتُ بأمي؟ كل ما أتذكره أني اتصلت ب "Mum"، ولكن صوتها كان غريبًا عليّ.. علمتُ بعدما أفقتُ وتوقّفتُ عن البكاء أنني في صدمتي بحادثة يوسف اتصلتُ بوالدته، ومع كلمات مبهمة منّي قادتها إلينا بالمَشْفَى، وبعد ساعات قليلة رأيتُ أصدقاءنا بالفرقة، كلما صحوتُ رأيتُ واحدًا منهم؛ فأشعر كأنما أنا في حلم ولستُ بالمَشْفَى، وعندما أنام أصحو فزعة ومرهقة، وأتساءل:

- ماذا حدث ليوسف؟ لا أحد يخبرني!

حتى لم أعد أريد أحدًا غير أمي ومازن، وبينما تتثاقل عيناي بفعل مخدّرٍ ما وضعوه لي؛ لأهدأ، تهيّأَ لي أني أرى مازن يأتي إليّ مسرعًا، لم أشعر بنفسي غير أنّي بكيتُ وبكيتُ من كثرة شوقي إليه، وأُحِطْه بذراعَيّ حتى ارتخيا، ولم أعد أشعر بعدها بشيء!

-مازن-

حضنتها بشدة..

حضنُها الصغير المتّسِع لي لحب ماض جلبَ لي روحي التي تركَتْني منذ عقود، حتى أعادتني هي إليها.. لروحي المتصلة بروحها.

بكت ديلارا كثيرًا عندما رأيتُها، ويا لها من جميلة وإن بكَت عيناها! أمسكتُ يدها لتهدأ، ولكنها لا تدرك ما بها، عيناها شاردتان ومعلّقَتَان بي؛ حتى أُغمِيَ عليها فجأة، وسقطَت روحي العالقة بها أيضًا في عالم آخر.

جلستُ إلى جوارها بعدما استدعيتُ إحدى الممرضات لحالتها غير المستقرة.. ودمعَت عيناي، تذكّرتُ كيف وضعتُها بنفسي يومًا بالمَشفَى بعدما تُوفِي والدها وأصابتها صدمة شديدة لم تتحملها، كم أنتِ رقيقة وصغيرة يا فتاتي على هذا العالم القاسي! إن صوتَها الذي بعَثَ لي في تلك الليلة أصابني بالرهبة والخوف عليها، تردّدتُ لحظتها أن أتصل بالرقم الذي أرسل الرسالة، ولكن حدسي أخبرني أن أمرًا ما قد حدث لديلارا، وعندما قمتُ بالاتصال وأتَى إليّ الصوت الأحب إلى نفسي، وكذلك أتى توتر من نوع خاص؛ فهي تستغيث!

لا أعلم عنها شيئًا منذ فترات، ولا ماذا حدث لها؟ وإلي أين قد أذهب؟!

كلماتها كانَت مبهمة تحوي اسمًا جعل عقلي يصارع قلبي، من هو يوسف الذي تخبرني عنه؟! ولحظات أخرى من الكلمات المتقطّعة أردتُ أن أعرف أين مكانها؟ حتى انقطع الاتصال ومحاولاتي العديدة، حتى أمرتُهَا أن تتصل برقم محدّد.. رقم الإسعاف، وأن ترسِلَ لي موقعها عندما تصل السيارة حتى أتَتبّعها، ولتوترها لم تُنفِّذ هذا، وتركتني في

حيرة زائدة حتى عاودَت الاتصال على رقم الهاتف الباعث في قلبي الخوف والرهبة.

اتصالاتي المتكرّرة كالمجنون وأنا أدور حول نفسي بالمنزل لا أعلم إلى أين أتجه؟! وقمتُ بالاتصال بأحد إخوتي الصغار؛ ليكون مع أمي، وكذلك نوران، حتى جاء لي الرّدّ أخيرًا بعد ساعات من الاتصال المتلاحق، وأسمع صوتًا رنّانًا لسيدة أكثر هدوءًا وقلقًا في آن واحد، وعن طريقها علِمْتُ بمكان المشفى، وقادتني قدماي إلى الإسكندرية؛ حيث فتَاتِي الهاربة!

هي الآن بالمشفى في حالة صدمة شديدة من الحادثة التي قاداها إليها المدعو يوسف بهذا الوقت المتأخر من الليل. فأين كانا؟! وإلي أين كانا ذاهبَيْن؟! وماذا كانت تفعل؟! عقلِي مشوّش للغاية وروحي تختنق.. أجلس بجوارها.. أشتاقها كثيرًا، ولكني أشعر بالغضَب يسرِي بدمائي المحتنقة؛ فيشعلها حتى أصابني صداع لا يحتمل، وها هي قدرتي على التحمل تُستَنفَذ، وينبغي أن أكون هادئًا، وإذا صراع آخر لم يكن لي في الحسبان.. لمسةُ يدها تعينُني على التحمل على الرغم من تهتُّك خلايا دماغي ونبض قلبي الذي صار مسرعًا تارة وهادئًا كأنه خامل تارةً أخرى.

نظرتُ إليها وهي نائمة أمامي.. ملامحُها كما عهدتها، ولكني شعرتُ أن شيئًا ما قد تغيّر! ليس فقط شعرُها الغجري الكثيف وبقايا من مكياج على وجهها المخملي، ولكنه شيء آخر.. إنه بالقلب، تلمسُه روحي وإن لم ترَه عيناي!

-نوران-

"الذين أحبّوا الله، ليس فقط أكثر من كل متع الأرض، وإنما أكثر من الحياة ذاتها؛ فقدموا حياتهم من أجله، واثقِين بأن هذه الحياة لها امتدادٌ معه هناك في الأبدية، هكذا تركوا الدنيا كلها بما فيها، ومعه لم يريدُوا شيئًا على الأرض ولا حتى أن يعيشوا فيها.. إن الذي يحب الله ويكتفي به يكون مستعدًا أن يترك أي شيء من أجله، أو كل شيء من أجله.." (الإنجيل)

كلماتٌ مرَّت بقلبي وعقلي وأنارت بداخلي هذا السيل الدافئ من الحب إلى محبوبِي الأول وخالقي حول كل شيء؛ فلم أعد نوران الفتاة التي أغلقَت بداخلها معاني الحب؛ فصرتُ بكل لغات العالم أعشق، وبكل لغات المحبين ينطق قلبي ولساني بالمحبة، والله معي أينما ذهبت.. الله محبوبي أعطاني فرصة أخرى للحياة، ولكنها ليسَت الحياة السابقة؛ إنها النور بالقلب والوصل والمحبة واتصال الروح، ترددتُ على أماكن عدة بعدما كانت تسوقني قدماي سابقًا، حتى أصابني ما حدث وتوقفَت الحياة بعينيّ، والقلب زاده انكسار اللوعة والحسرة على ما فاتني!

صارَت روحي هي من ينير لي دربي، والقلب عاد إليّ يقودني إلى حيث نسائم المحبة.. زياراتٌ إلى آل البيت وستّنا أم العواجز، وكم أراحَ وأزاحَ ما بي من هم حتى تعلقتُ بهم وصرتُ أستحضر أنوارهم بصدري وأراهم بأحلامي، وتجولت بالكنائس، وسمعتُ صلوات لم أعهدها بهذه الحياة وعرفها قلبي.

كانت صلاة صامتة بعيون كل من كنتُ أراهم.. في دعواتهم المختبئة، وأنرتُ الشموع بدعواتي لتنير ما عَتِمَ بداخلي، ولأفتح لروحي أبوابًا من نورٍ، ولابتهالاتي بأن تزيح الهم وما قد علق بروحي، بدموع

شفّافة حانية سقطت وسقط معها كِبرٌ كان يشغلني عن صلاتي وهي نسكي ومحياي، ولصلاة القلب والروح حياة أخرى.

رأيتُ بمازن عتمتي السابقة، وانكساره أعاد إليّ لحظات ماضية: حتى رأيتُ به نورًا معلقًا حوله كأنما يريد أن ينبثق من هذه الظلمة حتى ينجلي، إن الله يحبّنا كثيرًا ولا يريد لمخلوق أن يحزن ويتألم؛ فما تعلّق إنسان بالبشر حتى أصابه الوهن والهوان، فوالله تعلّق الجسد يأخذكَ بعيدًا حتى تعيدك قويّ الروح؛ فيطيب القلب ويهدأ العقل وتلتَقِي بالروح؛ فتعيدك لأصلك.. واحد.. روح وجسد ونفس متصلة بالله، وتزيل ما عانيتَه من تعلق؛ حتى ترى عجائب قدرته فيك وفي العالمين، وها هي روح مازن تريدُه أن يرى النور؛ فيذهب الألم وينزاح الهم وتنير الظلمة.

-ديلارا-

Hold me close and hold me fast
The magic spell you cast
This is la vie en rose

When you kiss me heaven sighs
And though I close my eyes
I see la vie en rose

When you press me to your heart
I'm in a world apart
A world where roses bloom

دندنات تتراقص بأذني.. رأيتُني أعزف على جيتاري "La Ve En Rose"، وينظر إليّ يوسف بعينيه الزرقاوين المحبّبتَيْن لي، ومع الكلمات أغمضتُ عينيّ، وتذكرت مازن عندما كان يطلب مني غناء هذه الأغنية، شعرتُ بيده تلامس كفّي مردِدًا اسمي، فتحتُ عينيّ لأرى مازن بالفعل يجلس إلى جواري، ورويدًا نظرتُ حولي لأجدُنا في غرفة مَشْفَى، تذكرتُ حينها أن حادثًا ما قد حدث لي وليوسف، تجمدَّت أطرافي وابتلعتُ كلمات أردتُ أن أُحدّث مازن بها؛ فلم أستطع أن أنطق بشيء، لمسَتُه الحانية أعادَت إليّ أمانًا فقدته منذ فترات لم أعد أعلم مدى بُعدِي عنه، أعادَت إليّ أيضًا صديقي معها..

ديلارا:

- هو إيه اللي حصل؟! وازّاي؟! انتَ!

مازن:

- بالراحة.. ماتفكّريش كتير..

في حينها دخلَت الممرّضة والدكتور المتابع، عندها نظرتُ أبحث عن أصدقائي بالفرقة، وجدت إكرام خارج الغرفة وعيناي المعلقتان بالخارج جعلَت مازن يعلم ما أريد أن أسال عنه، لم يعرف بعد يوسف، ولكنه نظر إليّ بهدوئه المعتاد، وكما كان يفعل يحتوِيني دائمًا ويعرف ما يجول بخاطري..

مازن:

- ماتقلقِيش حالته استقرت.. هي شويّة كسور، وفاق من شويّة وسأل عليكي كمان..

ديلارا:

- يوسف..

دمعت عيناي ولم أستطع إخفاء ذلك، وضع مازن يده على رأسي ملامسًا لشعري مهدهدًا لي ومداعبًا..

مازن:

- شكلِك كدا أحلى.. بقيتي شبهِك وشبه روحك.

ابتسمتُ رغمًا عني.. كم افتقدتُ مازن! ولكن يا له من وجع يسكُن في عينيك، وشعوري أني تركتكَ، كما أبدو أنّي لا أبالي بكَ وبحبكَ لي، انتفض قلبي.. وشعرت أن قلبه انتفض أيضًا؛ فانسحبَت يده فجأة من بين يديّ، وأزاح بصره بعيدًا عني.

دخلَت صديقتي إكرام الغرفة لتَنْتَشِلَنِي من هذا الشعور المختلط، وبلهجتها المغربية جذبَت انتباه مازن إليها..

إكرام:

- لا بأس عليكِ حبيبتي.. مرحبًا.

مازن:

- أهلا بيكِي.

وجلسَتْ إلى جواري، وقام مازن بالخروج مبررًا أنه سيقوم بعمل ما، وليطمئن على حالتي من أحد الأطباء، دائمًا يحميني؛ فهو من تبقَّى لي.. صديقي المفضل وأعزّ ما أملك.

-يوسف-

أمسكَت بي جيدًا.. تحيطُ جسدِي بذراعيها، كنتُ أشعر بنبضات قلبها تتسارع حينًا وتهدأ أخرى، أنفاسي تحترق وقلبي مُولَعٌ بها؛ معها اختلف كل شيء.

كنتُ أشعر أنني يمكن أن أطير، أن أحلّق بها بعيدًا، التهمت الطرقات، وبينما قلبها ينبض خلفي وأشعر بها حتى سقَطَ قلبي في سكون عجيب، ولم أعُد أشعر بشيء بعدها.

ساعة.. دقائق.. بعض الوقت، ربما أكثر؛ حتى شعرتُ بنفسي وجسدي المتألم، ولقطات سريعة تبدو خاطفة من حادثٍ ما، تنهدتُ وبدأتُ أستعيد أنفاسي المضطربة، وعاد قلبي الساكن إلى إحساس ممتلئ بالقلق، أكره هذا الإحساس الذي يبدو من سخافته رغبَتِي السابقة في الإقلاع عن التدخين، وأن يروني وأنا أدخن؛ فيعيدون لي الحديث بمساوئها.. شعور مماثل لهذا وأكثر. ويالللغرابة! أجد أمي أمامي.. ماذا حدث؟! ولِمَ هِي هنا؟! وكيف عرفَت؟! وماذا حدث؟! وبعد وقت من الفحوص العديدة استوعَبْتُ الحادث الذي قمتُ به، واضطرب ذهني كثيرًا لِمَا مرَّت به ديلارا، وما وضعتُها فيه من خوف وقلق وتعرض حياتها للخطر.

أردتُ رؤيتها، ولكني مقيّدٌ بسريري، كُسُوري ليست بالأمر الجلل، والمؤلم هذا الضلع الذي كُسِر وأخذي لجرعات من المخدر وزوالها السريع.. اطمأنَنتُ عليها من أصدقائنا.

كانت ساعات طويلة شعرتُ فيها بالاختناق أكثر من تلك الأيام التي كنتُ أمضيها مع أمي بالمنزل، وها هي تقف إلى جوار سريري في هدوءٍ لا يشبهها! أين غضبها المعتاد وتحكّمها فيما يخص كل ما حولي؟!

ومعاملتها لي مثل أحد ممتلكاتها، لِمَ هي لطيفة هكذا؟! وتأتِي إلى بَعْد هذا الحادث! ليس الأول على كل حال، ولم تأتِ من قبل!

لم أكن في حالٍ جيّد للتحدث معها أو الجدال، يكفيني مجادلَة نفسي عمّا فعلتُه بالفتاة التي أحبها، وكيف أنّهُم أخبروني أنّها فزعت مما حدث، وانهارت لاحقًا بعدما نقلوني إلى المشفى.. لم أستطع أن أراها، ولكني علمتُ أنها ستكون بخير على كل حال، تعجبتُ كثيرًا من وجود أمي وأنها لم تنهرني بعد لإهمالي بصحتي وتهورِي، وما سبّبْتُه بالحادثة.

أشعرني أصدقائي بمرور هذا الوقت الثقيل، وهذا أفضل ما في الأصدقاء بهذه المواقف.. بهذا الحادث.. وهذه الأزمة، وتململي لرغبتي المميتة في التدخين، ولا يمكن أن يكون ذلك، إلا أنهم جعلوني أفيق ببعض الضحكات والسخرية.. ممتنٌّ لسخافتهم هذه، وممتن لوجودهم معي.

-مازن-

حاولتُ أن أمحو هذا الشعور المزمن بتكرار إخفاقاتي، ولكني لم أستطع! كلّما أردتُ أن يزول هذا الانقباض القابع بداخلي تاركًا لي توترًا متلاحقًا في أمعائي، هدوئي الزائد لا يدلّ على عدم رغبتي في الحديث، ولكنه الموقف.. عليّ فقط أن أكون هادئًا ولا أُحدِث جلبة ما.

تحسّنَت ديلارا قليلًا، وعلمتُ منها أنها تسكن مع فتاة معها بالفرقة الموسيقية (فتاة مغربية) وأنها بخير، فلم أعد أفهم عليّ أن أكون معكِ أم ماذا؟! ولكن ربما عليّ بالفعل الرحيل، وعلى الرغم من اطمئناني على والدتي من نوران، إلا أني لا أشعر براحة تامة لتركها بهذه الحالة؛ فهي مريضة للغاية وليس لها غيري بهذه الحياة، لم أرَ أمي يومًا بهذه الحالة السيئة من المرض، ولكنه قدرها وأمر الله، وليس لي غير أن أكون بجوارها حتى تتحسّن، وهذا يريحني أيضًا؛ فهي صفاء وصفاء قلبي.

وبينما مرَّت بي الساعات في تواتر بطيء حتّى وصلتُ مع ديلارا إلى شقة رفيقتها، وبعدما أطمأنّت علي صديقها الشاب الذي لم أره بعد حين تركتها تذهب إليه، وقلبي ينبض حبًا وتنافرًا، لم أعرف ماهية هذا الشعور؛ فقد كنتُ أتقلّب منذ فترات بين اشتياق ونسيان، وقبل أن أنسى ها هي تعود رغمًا عنها وتحطيمًا لأعصابي، وبينما مرّ بعض الوقت حتى هاتفتني نوران، انقبض قلبي مجددًا وصوتها المبحوح المتوتر جعلني أُوقِنُ أن شيئًا ما ليس جيدًا بها!

نوران:

- مازن.. معلّش إنّي كلّمتك تاني بسرعة كده!

مازن:

- في إيه يا نوران؟! قولي..

- والدتَك تعبت تاني، وأنا أخدتها على المستشفى.

وضعتُ كل ما في يدي عندما كنتُ بمنزل إكرام من حُسن ضيافتها المغربية كما قالت لي ديلارا، ودون أن أنطق حرفًا كانت عيناي تفضحني خوفًا وقلقًا، رأتني ديلارا وكما كنا صغارًا.. كنا نفهم بعضنا بعضًا من نظرة واحدة.

ديلارا:

- طنط تعبت؟

مازن:

- أيوَه، ومحتاج أسافر.. انتِي هتبقِي..؟!

- ماتقلقش.. أنا كويسة!

- هبقَى أطّمّن عليكي.. أو زي ما تحبي!

- حاضر هطمّنَك.

أسرعتُ بخطاي تفترس خطواتي الطريق لمحطة "الباص"، وتحدثِي مع السائقين عن الأسرع بينهم للقاهرة: فقد كنتُ أريد أن أكون بجوار أمي بالحال، ولكنه القدر وضع لي خطته بأن لا أكون هناك ومختبرًا لتحملي.

حسنًا.. ماذا فعلتُ لأكون بهذا التشتّت بين ما يجب أن يُفعل وما أفْعَلُه وما لم أستطع أن أغيره؟! ولكن عقلي تجمّد، وحينها تحركَت السيارة عائدًا يغالبني الندم والشك والحيرة.

-ديلارا-

عدتُ إلى حيث البداية..

إلي حيثُ بداية هروبي..

أن أهرب من نفسي.. من مشاعري الخاصة.. من أن أجد في هذه الحياة شيئًا يشبهني، أو أن أخلق حياة أخرى تكون لي لا تشبه ما قد مررتُ به قَبلًا، يبدو قلبي هشًّا للغاية كما كانوا يقولون لي منذ صغري، هكذا شعر مازن وترى أمي: أنني لا أقوى على هذا العالم! ربما هذا صحيح.

ولكني لست بهذه الهشاشة وأنا أخلقُ عالمي الخاص، ولكنّي فقط لا أريد أن أكون مقيّدَة، أو أن أكون بلا إرادتي، وهذا جعلني في حيرة؟! لماذا؟! لأني لم أكُن يومًا أمامهم تعيسة، كنت تلك الفتاة المرحة ذات الألعاب الطفولية والوجه البشوش، لم يروا بكائِي مرارًا بعد وفاة أبي، لم يروا كم اشتقتُ إلى حنانِه أو إلى قسوته! أن لا أحتاج أحدًا طالما أبي يقف خلف ظهري شامخًا مهيبًا؛ لكلّ من ظننتُ أنهم وحوش ضارية بالحياة، علّمَنِي الشجاعة والأمان؛ ففقدته، لم يروا عندما كنتُ أتفقّد صورنا وأنا صغيرة أجلس بين قدميه يحتوي حجمي الصغير، وأشعر بالأمان هذا الذي سُلِب مني ولم يعطه لي أحد، لم يعلموا أن أبي تركَ لي خيارات عدة للحياة، ولم يختر لي بل تركني حرة، بل كان يجعلني أتحمّل أخطائي ويشعرني أني أستطيع، وأني قوية؛ فلماذا يظنّون أنّي هشة؟! أهو انصياعي لرغبات أمي حتى لا أفقدها هي أيضًا مبكرًا؟! أو أن أجد نفسي وحدي؟ أم هو مازن ورغبته الدائمة في حمايتي؟!

كثيرًا ما كنت أحتاج له كصديق وليس كحامِي شخصيّ لي، أردتُ أن نكون مغامرَيْن معًا.. أن نخطئ.. أن نهرب سويًا، نفعل ما يحلو لنا، ولكنه كان لي حارسًا أكثر من كونه صديقًا، أردتُ أن أختبر الحياة والتي لا أعرف إلى أين قد تأخذني؟! عالمي من الموسيقى والسفر والأصدقاء، ولهذا رحلت.. وعندما وقفتُ أول مرة أمام يوسف دقَّ قلبي لأول مرة بطريقة مختلفة، وأخشَى أن أُخبِرَ مازن بهذا، ولكني حقًا أحبّ مازن ولا أعرف ماذا فعلت؟!

ماذا فعلت أنا؟!

ماذا فعلت بمازن؟!

جلستُ أبكي، حتى تمالكتُ نفسي سريعًا تاركة كل شيء بالإسكندرية، ورحلت..

-نوران-

دعواتنا ما هي إلا شفاء لنا ولأرواحنا معها..

كنتُ أدعو الله كثيرًا وأنا في المَشْفَى، وأعلم أن أمر الله نافذ لا محالة، ولكني أدعو الله بالرحمة.. أدعوه بالمغفرة.. أدعو لمازن ولأمه ولِي.. أن يُذهِبَ البأس وأن تنحل هذه الأزمة، واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون.

رأيتُ مازن يأتي إليّ مسرعًا يكاد قلبه يقفز خارج جسده، وكطفل صغير وجد أمه أتى إليّ، عيناه تترقّق بالدموع محاولًا إخفاءها، أخذتُه من يده إلى حيث ترقد أمه المتوفّاة، يداه تحوّلَت بين يديّ إلى كتلتين من الثلج، وعندما رآها هوَى قلبه بين يدي، وتلك الدموع الحبيسة صارت تعلن عن نفسها..

إنه الموت..

إنه الموت عندما يأتِي ويأخذ منا من نحبه، ويصير القلب ثائرًا علينا ونعلن أنه يتمزق، اللهم رحمة.. اللهم سكينة.. اللهم اغفر لنا.

كانت مريضة جدًا، وصبرَت كثيرًا، وجاء موعدها، وحينها وكلٌّ منا له موعد وله لقاء، لا أخشى الموت، ولكنه الفراق.. إن الموت يأخذنا إلى عالم أرقَى وإلى الأحَنّ والأحب لقلوبنا.. إلى الله❤.

ولكنه فراق المحبين، وإن الموت هو مصيبة الأحياء وراحة الراحِلين، يأتي لنعلم أننا أيضًا راحلون، وأن حياتنا ما هي إلا رحلة؛ فلنترفَّق ببعضنا بعضًا ونكون بها معًا.

ولعلمي بكل ما يجب أن أقوله لم أجد حرفًا يسَعُ هذه اللحظة الصامتة؛ فنظرت إلى صديقي الجزع، وجلست إلى جواره وهو يبكي أمّه للمرة الأولى، وعدتُ أدعو له وأردّد دعائي بصوت خفيض.. يسمعه..

(اللهم صبّرنا على الفراق.. واغفر لنا ولها)

-يوسف-

بسرعة فائقة.. كل شيء ضبابي وقلبي وأنفاسي كله يختلط.. كل شيء صار سريعًا دون أن أفعل شيئًا، ولمحاولتي بكل استطاعتي أن أتمالك نفسي؛ يتكرر الحادث مرارًا أمام عينيّ، حتى يتركني معلّقًا بتلك النظرة الصارخة من الفتاة التي أعشقُها، وصراخٌ مدويّ بأذني.

عدتُ من المشفى بعد مرور أسبوع من الفحوصات والتعافي، كان الأصعب لتجاوزه، ولكنه لم يكن الأصعب في حياتي؛ فقد كانت ثاني حادثة أمُرّ بها، فكّرتُ كثيرًا في هذه الفترة بإقامتي الإجبارية بالمَشفَى، ووجود أمي حتى نصحها الأطباء أنه يلزمني الراحة بالمنزل الآن، ووجودُها معي جعلني أشعر بالغرابة لم أعتَدْ وجودها منذ زمن طويل، ولكنها أمّي على كل حال، كانت فقط تتركني عندما تريد أن تدخّن إحدى سجائرها وتشرب قهوة بالكافتيريا؛ فتريحُ عقلي قليلًا من أحاديثها معي!

كل هذا لا يهم؛ فقد كان عقلي مشغولًا بـ"ديلارا" وكم أفتقدها! فقد سافَرَت فجأة، وإن قلبي الذي تاقَ كثيرًا للحظات الحب أخيرًا وجدها، وعلى الرغم من زيارتها لي مرة ورسائلها الدائمة ومحادثتها لي لأكون بخير، ولكن لا؛ فهناك ما ينقصني وسأكون بخير إن كانت هي معي.

أفتقدها وأريدها!

تخيلتُ كل المشاهد التي يمكن أن تحدث وأنا أراها، ومحاولة إخبارها بمشاعري نحوها، وتذكرتُ ملامحها التي تنسيني ألمي أفضَل من المسكّنات، وكيف كنا مع بعضٍ لشهور منذ أن جاءت إلى عالمي، وانطلاقنا وصوتي وأنا أغني لها، وهي تعزفُ أمامي حتى تخجل وتغلق عيناها عنّي، وعن طفولتها وجمالها الهادئ، ومزيج شعرها الهائج يجذبني إليها دائمًا، لم أعرف أحدًا يشبهها، ولهذا أريدها.. أريدها أن تعود للإسكندرية في أقرب وقت، وليكن ما يشاء أن يكون بيننا.

-مازن-

جلستُ واضعًا كفاي على وجهي كأنما أردت أن أُخفِي كُلِّي بداخلهما..

شعرتُ بهذا الألم المتسلّل بداخلي ينخِرُ عظامي؛ حتى ما عدت أستطيع أن أتحمله.. قلبي يهوَى للأسفل وروحي معلقة، دقائق مرّت، ربما وأنا وحدي بين عالمين! واقعًا لا أشعر به، وآخر أرجو منه أن ينتشلَنِي من هذا الألم.. لحظات حتى بدأَت دموعي تتساقط على كفي.. انسيابُها جعلني أهدأ، هي قطرات صغيرة تفيضُ بقلبي كله، شرد عقلي تمامًا حتى صار الضجيج حولي بالمَشْفَى يصارع عقلي الساكن، عدتُ إلى واقع يؤلمني كثيرًا؛ حتى نسيتُ كيف أعيش بدون هذا الألم، محاولات عديدة لا أتذكر منها، غير أنني كما عهدتُ نفسي مسئولًا عني، وعن أمي وعنهم جميعًا.

إن أمي كانت حضنًا دافئًا لي، وحضنُها كان ملاذًا الهروب لي، ولكنها رحلَت الآن وعليّ أن أدرك ذلك، أشعر الآن أنّني مثل طفل قد فقده أمه بالزحام، أريدها.. أريدُ أن أبحث عنها، وأجدها تفتح ذراعيها لي بكل دفء العالم.. وأن تحضنَنِي هي لتمحو ما فعلته الحياة بي، وتطمئنني كما هي عادتها، وأن كل شيء سيكون بخير وسيمرّ، وأنني قرة عينها فلا أحزن.

وبينما يتهاوَى جسدي على الرغم من وقوفي ثابتًا بهذا الصرح الأبيض الحزين، حتى وجدت يدًا حانية أعرفها جيدًا التفّت حول يدي، وبينما أنظر إليها بعينَيْن خاويتَيْن حتى حضنتني، وكان حضنها الصغير منتشلاً لي من غرقِي الشديد؛ فتركتُ نفسي له.. بصمت لا يصِفُه حرف، شعرتُ بكل نبضات جسدي كأنما كنتُ أفارق الحياة منذ قليل وأعادَتْنِي هي، مثل أجهزة الإنعاش تلك للحياة والتنفس

مجددًا؛ فيتدفّق الدم محملاً بدفء أنفاسها ونبضات قلبها، حتى صار قلبي ينبض معها مجددًا، هي أيضًا كانت ملاذِي الهارب، وها هي تُعِيد جسدي لي.. نظرت إلى وجهي، ولكني لم أستطِع أن أنظر إلى عينيها؛ فقد كان انكساري يؤلمني، أشحتُ النظر عن ديلارا الممسكة بيديّ، وبحثت عن ملاذٍ آخر يمكنني أن أتهاوَى أمامه؛ فكانت هناك، ها هي نوران تنتظر لقائي بديلارا، ولكنها انتبهَت لطول نظري إليها؛ فجاءت إليّ مسرعة تعلم أنني لن أقوَى على ذلك.

أخذتني قدماي لجسد أمي بعدما قاموا بتغسيلها لوداعي الأخير، ولقبلة أخيرة من جنتي الراحلة، ولتكُن الأرض كما هي قاحلة لا تروي أبدًا، رأيت وجهها النوراني؛ فسَكَنَ قلبي، إنها بالجنة الآن ومستبشرة بربها، وحينها فقط علمتُ أن لا أحد يشبه أمي، وها هي قد رحلت.

-ديلارا-

ضباب...

لحظات من الثقل حتى صارت الحياة كغيمة كثيفة أمام عيني.. أكاد لا أرى شيئًا، مشاعر متضاربة كموج بحر الإسكندرية التي هربتُ إليها، وعقلي وحدسي معًا جعلَانِي أقف أمام مازن بعدما تتبّعتُه بأقل من ساعة إلى القاهرة، وبحثت عنه ورأيته، وها هو شعوري نحو مازن صديقي المحبّب ورفيق طفولتي.. إنه يتألم فاقدًا لأهم وأحب البشر إليه، لم أتمالك إحساسي وأنا أحضنه وهو صامد لا يئن.. لا يشكو، ولا يصدر صوتًا؛ فتنازعَ قلبي حبًا وخوفًا ساحبًا إياي لأمي!

كيف تركتُها طوال هذا الوقت، وشهور عدة لم أرها فيها، وكلما اشتقت إليها أرسلت لها رسالة على الهاتف أنني بخير، وتقوم هي بإرسال دعوات، لم أستطع أن أجعلها تتوقّف عن البحث الدائم عني، وعندما حضنتُ مازن شعرتُ مثلما تشعر طفلة تائهة عادَت إلى أهلها، ولكني أفتقد أمي.

تركتُ مازن مع نوران، الفتاة التي علمتُ منه أنها صديقته ومأمنه الحالي، كما رأيت في عينيه، وأسرعت بخطَاي إلى ملاقاة أمي، موتُ والدة مازن، وكم أحببتُها لطيبتها نحوي دائمًا جعلني أشعر بالخواء، ولم يذهَبْ عنّي هذا الشعور إلا عندما وجدتُها تنظر إليّ في فرحة غمرتني بسعادة فائقة، لم أتمالك دموعي وارتعاشة قلبي... إنها أمي كما عرفتُها وحضنُها الحنون، كيف يمكن أن أنساها؟! وقد كنتُ أهرب ولا أعلم متى سيحين موعد عودتي؟! ولكن ها هو قد جاء.. دموعُها ودموعي لم تترك لنا الحديث؛ حتى حدثتها بما في نفسي:

ديلارا:

- أنا آسفة يا ماما! حقِّك عليّا والله.. أنا عارفَه إني زعلتك وسيبتك.

راقية:

- لا يا حبيبتي.. مش عاوزاكِي تعيّطي! الحمد لله إنك رجعتِي.. يا رب ليك ألف حمد وشكر، استجبت دعايا ورجّعتلِي بنتي وردّتْلِي روحي معاها.

صوتُها الدافئ حوّلَ دموعي إلى ضحكات لم أستطع أن أخفيها.. حزن مخلوط بسعادة، وخوف ممتلئ بحب؛ حتى تلاشى قليلاً الخوف، وأغمضتُ عيني عنه وحضنتها مرة أخرى طويلًا.

-نوران-

رحماتُ الله تسع قلوب البشر، ويحنو علينا بسكينته، لا نعلم من أين تأتي فلا نجزع، إنما نهدأ ويتضرع القلب في سكون.

مرت أوقات كثيرة عصيبة لديّ، وكنت دائمًا أردّد الدعاء، وأن الله معي لا يخذلني؛ فيحميني، وأن الله هو القادر على انتشالي من الحزن ومن المصيبة ومن الابتلاء، وأن أقدارنا التي نشاء؛ فهي مشيئة الله، وإن لم نشأ فهي أيضًا مشيئة الله، والله يجلبُ لنا أمره محمّلًا بالرحمة والحب، ونتعلم حينها التسليم له ولمشيئته.

والموت حقيقة، والحيوات تتوالَى حتى نعتادها؛ حتى نصحو على غفلةٍ منا على حقيقتها، أنها عابرة وأننا في رحلة، فلنتصاحب بالمحبة ونكُن رفقاء رحلة محبّين، ولنمضِي يومًا إلى حيث الحقيقة.

عيناه تتعلق بي كلّما نظرتُ نحوه، شعرت به كما لم أفعل من قبل؛ فاهتزّ بداخلي سكوني وارتجف، ويقفز قلبي خارجي عندما أنظر إليه.. مازن يتعلّق بي كالتائه الذي يستدلّ على طريق يسلكه، وأنا إلى جواره ومعه لا أعلم إلى أين تقودني قدماي، ولكني أسمعُ روحي دائمًا منذ أن عدتُ إليها، وبعدما تألمَت نفسي وتردّدتُ على مجالس الحب ودروبه وزيارات الأولياء أحباب الله وأحبابي؛ حتى هدأتُ وأسندتُ نفسي لأقف وحدي، وفتحت بين ضلوعي للنور حتى أُخرِج الألم مني.

ولكن مازن بداخلي أشعر بذبذباته تحيطني هذه المرة، كففتُ عنّي هذا التوتر وترفّقتُ بنفسي محدثها..

- ليس الآن! لا مشاعر الآن!

- لكنه الحب إني أشعر به.

- إني خلقتُ منك أيها الحب، ووالله ما وجدتُ لذةً في الحياة كحبً يقوّيني.

- إذًا لِمَ تخشيني؟!

- إني أخشَى أن أعود!

- لا تخافي..

- ربما هلكت كما هلكتُ سابقًا!

- الحب جريانه كالماء في النهر لا ينضب ولا يجف؛ فهو متجدّد، ولكن إن وضعتِه في أناء حتى تحتفظي به خذلَكِ وصار راكدًا لا يرويكِ إلا قليلًا؛ فلا تخافي الحب.

- إنه الحب.. وبالحب ينضج القلب.

- ربما، ولكني الآن يجب أن أعود إليه!

أن أترك أمري كيفما يشاء الله، ولأعود إليه.. إلى صديقي الجزع.

-يوسف-

أفقد أعصابي..

العجز.. التقيد.. وجود أمي.. رحيل من أعشقها، كل شيء يقودني للجنون، كلما جاء أحد أصدقائي إلى المنزل أغلقنا علينا الغرفة؛ حتى أستطيع أن أدخن قليلًا ودون أن أُسأَل.. أنتَ رجعت للتدخين؟! عليّ أن أتمالك نفسي.. لِمَ أمي هنا؟! عقلي مشوّش، ولكن اهتمامها الزائد بي لا يطمئِنُني، حتى قادها الشك لي..

نوال:

- صاحبَك نزل؟

يوسف:

- أيوَه.

- أووووف.. الأوضة ريحتها سجاير خالص!

- اممم.. معلش هترُوح دلوقتي.

- أمال فين باقي صحابك؟!

- جُو نِزِل قدامِك دلوقتي، وعلي وكريم جُم امبارح.

- لا.. البنت دي صاحبتك؟

في لؤم شديد تحاوِلُ أن تستدرجني لحديث أعهده عليها، ولكنها تحيك القصة بتساؤل كعادتها! حديث الأمهات كالعادة! وغمزتُ إلى أمي الواقفة ترتّب الحجرة في تململ شديد، كأن غرفَتِي تشبه بقايا حرب لم تدرِ عنها شيئًا.

يوسف:

- أنهي؟! أنا صحباتي كتير! مالك يا نونَا بس؟ يعني بقالَك كثير مسألتنيش السؤال دا؟

نوال:

- بطل تشتغلني يا ولد! البنت الصغنونة دي اللي كلمتني لما عملت الحادثة.

- آه ديلارا! سافرت عند أهلها.

- اسمها غريب بس حلو.

- اسمها وكلها حلو!

- طب إيه الحكاية؟!

تهرّبتُ من أسئلة نوال عن ديلارا، وتعلّلتُ برغبتي في دخول الحمام؛ حتى تتوقف عن استجوابي! والآن فهمتُ لمَ هذا الاهتمام الزائد؟ إنها تشك بعلاقتي بها، وتريد أن تعرف عنها كل شيء.. شعور لا يطاق!

فقدتُ الكثير من هدوئي وأنا جالس بالغرفة وحدي أختنق بقدمي الثقيلة من الحادث.. حقًا لا أحتمل! كل شيء كان على ما يرام قبل حماقتي الزائدة وسرعتي ورغبتي في تسريع الحياة حولي، ها هي تدور بالعكس، وتتراجع عني.. بكسوري وقدمي التي أتكئُ عليها؛ كرجل عجوز، بل كشاب وسيم عجوز! فلتبقَ لي كرامتي!

عليّ التعامل مع الأمر بذكاءٍ، وأبعدُ شكوكها نحوي ونحو ديلارا.. الآن على الأقل..

(ليس وقتًا للتسلط والتدخّل يا حاجة نوال)

-مازن-

قطرات من المياه المتتالية تتساقط، وتُحدِث بي جلبة، على قلّتها إلا أنها تؤثر فيّ كليًا.

ولكن لتوالِي تكرار تساقطها شعرتُ معها أن أعصابي التي لم تعُد تتحمل.. تهوَى أخيرًا، وأن هذا التساقط هو أجزاء من جسدي تسقط واحدة تلو الأخرى، وها هو قلبي النابض يكاد يُلفَظ خارج جسدي ويكون بين يديّ، وسقوطًا للأسفل أراني، كأنما الجاذبية عكسَت بي وحدي أرضًا وسماءً؛ فأنا بالأعلى أراني وعلى الأرض! الأحداث تتوالى وتستمر.. ديلارا لم تعد تخصّني وحدي، وها هو رجل آخر يصادقها وتخشى عليه، وآخرون يبدُون الآن أصدقاءها المقرّبِين! ولا أعرف أحدًا منهم، بل ولم أعد أعرفها أيضًا.. ها هو جسدِي الذي تركني بلا جاذبية إلى أسفل قدميّ؛ حيث أرضاً لم أجد غيرها، أميزهُ عاد إليّ، وعادت الجاذبية، ولكنها أثقل مما ينبغي؛ كأنها تجبرني على أن أبقى مكانِي دون تحرك، توقفَتْ قطرات المياه الساقطة من هذا الصنبور الفضيّ بمنزلي، شردت لوهلة.. وعندما أدرته كأنما أُدِير دفّة حياتي مجددًا، وهدأ عقلي قليلًا، حتى قطع شرودي رنين الهاتف؛ ليخرجني مما أنا فيه.

صوتها الهادئ الساكن القادم من الجنة يخبرني أن كل شيء سيكون بخير، وأنني سأكون بخير، هي متأكدة من ذلك! ولكني أشعر بالغرق والتشتت، ولكن كلماتها البسيطة التي تشبهها جعلَتْني أعرف أن بالحياة هناك أشخاص لطيفون للغاية مثلها، تحملَّتْنِي نوران كثيرًا بهذه الفترة، وها هي تبقى معي وتسكن عقلي بكلماتها العذبة، التي ما إن تقولها؛ فتنمو بداخلي حتى تتشابك وتتجذّر كشجرة عميقة، وبدعواتها لي صارَت كجذعها الذي يبحث عن الضوء بهذا الظلام الذي تعشّش بي وصار يشبهني؛ فيبحث عن خلاص، وعن مشيئة الله التي تخبرني دائمًا عنها؛ حتى وجدتُني أردّدها بعقلي وقلبي.

هكذا فلتكن مشيئة الله طمأنينة لروحي.. وراحةً وسكونًا.

-ديلارا-

كأني أعود بالزمن للخلف..

دخلتُ غرفتي الصغيرة التي تركتها منذ ستة أشهر، وتأملتُ في اشتياق أشيائي التي تركتها ورحلت، وجدتُ نوتَة فيها كنتُ أكتب بعض خواطري، والقليل من الأحداث والكلمات التي كانت تعلَقُ بي؛ فيريحني أن أضعها علي الورق، قرأت بعضًا منها؛ وجدتُني لستُ أنا! لستُ أنا التي كتبتُ هذه الكلمات! لقد تغيّرت.. كنت أشعر كثيرًا بالقيد وأني لا أجد أرضًا تتطؤُها قدماي، ولكن كانت بداخلي رغبة التحليق.. الآن أشعر أنّي فقدتُ هذا الشعور أيضًا، ربما أشعر بالحزن قليلًا والخزي أنّي تركتُ مازن لهذه الفترات وأني رحلت، ولكن قلبي لم يعد معي، ولا أعرف كيف أجدني، كأن هروبي هو منقُذِي ومنفَذِي الوحيد نحو الحقيقة.. أن أعرف نفسي فقط، وحتى ذلك لم أصل إليه بعد..

طرقٌ لطيف أخرجني من تفكيري هذا، ودخلَت عليّ أمي ورأتني وأنا شاردة؛ فضمّتْني إليها مطَمْئِنَة، كم هو مريح هذا الحضن! وكم كنت أشتاق إليه، حتى فاجأتني أن هناك ضيف يريد أن يقابلني، وأنها تريدني أن أراه!

حسنًا فهمت.. ها هو السبب الظاهري لهروبي، قد جاء إلى عتبة بابي.

فخرجتُ إلى الغريب بلا ذهن يقوّيني أو قوة لنتعارف.. للحظاتٍ وقفتُ أمامه في حالة ذهول حتى اقترب مني، لم أستطع أن أتحرك من مكاني! تعثّرَت الكلمات في جوفي واختنقَت حتى صارَت كحجر عثرة في منتصف طريق لا ينتهي، ما هذا؟! وخرجت الكلمات مني أخيرًا إليه!

ديلارا:

- عمي صادق!

صادق:

- حمدًا لله علي سلامتك! كدا تقلقينا عليكِ بالشكل ده؟!

- أقلقكوا عليّا؟! أنا آسفة.. بس خير؟ ماما قالت لي إني هقابل (جوز.. ها).

- أيوَه أنا عارف وهنفهّمك يا حبيبتي! بس خلينا نطّمن عليكِ انتِي الأول.

- عمي صادق، انتَ جوز أمي؟! دا انت صاحب بابا الله يرحمه! وكنت بتيجي عشان تطّمن عليّا! ولا ماكنتش بتيجي عشاني؟!

- طبعًا كنت باجي عشانك وعشانكم! انتوا الاثنين.. أمك غالية عليّا جدًا.. وانتي بنتي اللي بحبها والله وأغلى من ولادي.

- فهمت.

صمتُّ تمامًا ولم أستطع أن أنطق أكثر مما يمكنني أن أقوله، وعلى الرغم من انزعاجي ولكني لم أعُد أشعر أني غاضبة: فقط متفاجئة! نظرتُ لأمي مُحاوِلةً أن أفهم لمَ جعلَت هذا الأمر سرًا طوال هذه الفترة؟! ولكني لم أقوَ على هذه المحادثات، جلسنا جميعًا في هدوء ننظر لبعضنا بعضًا في لحظة من الصمت، وتعلّلتُ بعدها أنّي أريد أن أذهب لملاقاة صديقي مازن وأطمئن عليه، وعليّ فعلًا أن أفعل ذلك، ولكني كنت أريد فقط الخروج من هذا الموقف، وأن أستوعب هذا أيضًا.. ورحلت..

-مازن-

أمي رحلَت، وقد كانت هادئة وديعة..

لم أكن أعلم أنه برحيل أمي الهادئ سيتصدع قلبي هكذا، ولكن كان جزءٌ مني يعرف هذا وأخشاه، تُغلِّفُني رحمة الله وسكينته، كما قالت لي صديقتي نوران، إلا أن قلبي المكسور عاد يؤلمني؛ فتذكرتُ حالي بهذه الشهور المنصرمة، وكيف مرَّت حتى عادت ديلارا بعد تخبُّطِي وفقداني لنفسي وتبدُّل الحياة معي.

لا أريدها أن ترى ضعفي، وأن تراني بهذه الحالة وأن ينكشف جرحي، عليّ أن أهدأ حتى يُشفَى، ها هو الألم عاد، كما أنّ الحزن له متطلبات أخرى!

ولم يعُد لديّ قدرة بأن أجوب الأرض وأدور حول نفسي مرة أخري.. فلأترك كل شيء وليكن، وإن لم أكُن أريد ذلك سابقًا، وحاربتُه حتى خارت قواي، ونزعها عنّي الأكثر قوة مني؛ إنه القدر، واختيار الله لي بأن تقوَى نفسي، وقد كنتُ أعتقد أيضًا أني مرَرتُ باختبارات عدة منذ وفاة أبي ومسئولياتي، ولكني كنتُ أهرب أيضًا من ألمي، ولا أريد أن أواجهه، أو أن أتقبّله؛ حتى عاد أكثر فتكًا وتضخمًا عما مضى؛ فأتقبّلُه إذًا لأودّعه بسلام، ولتسكن روحي قبل جسدي.

-ديلارا-

(هنجِنّن يا عاليَة)

(طب اهدِي)

هاتفت عاليَة وأنا أصارع عقلي، إنه صديق أبي الذي طالما كان بجواري أنا وأمي، كيف يُعقَل هذا؟! عندما رحلتُ كنتُ أظنّه أحدًا لا أعرفه، وأنها أخفَت عني زواجها خوفًا عليّ حتى أنتهي من دراستي.. لعامين تزوّجَت وأنا معها ولا أعلم، وأدور بالحياة ولا أجد حياة خاصة تشبهني، وقفتُ أمام عاليَة في حالة من التّيه بعدما جاءت إليّ مسرعة، كنتُ أشعر بأني وحدي، وأن الحياة ليسَت معي، وأن اختبارها لي يزداد، تألمتُ كثيرًا منذ وفاة أبي، وكنتُ ألجأ إلى مازن دائمًا، ولكني أصبحتُ الآن أنا مصدر ألمه وخذلانه، ولا أنكر ذلك بل أخاف عليه، وأتألم معه لموت أمه؛ فلا يمكنني أن أذهب إليه وهو بتلك الحالة، كما أني هربتُ منه قَبْلًا عندما كان معي، وبعدما علمتُ بالصدفة بزواجها من رسالة موجّهة لهاتفها جعلتني أتساءل، وعندما واجهتها وعلمتُ منها إخفاءها ذلك عني ثارت ثائرتي، ونسيتُ توتر علاقتي بمازن وذهبت إليه!

ديلارا:

- ازّاي يا مازن أمي تعمل فيّا كده؟!

مازن:

- اهدِي بس واحنا هنفهم سوا.

- بقولّك خبّت عنّي كل الفترة دي! وأنا اللي كنت دايمًا بحاول إنّي أرضِيها على حساب نفسي!

- بلاش ترضِي حد على حسابك.

- حتى انتَ كنت بعمل ده عشانَك!

- ترضيني يا ديلارا؟!

- أيوَه يا مازن أرضيك.. حتى لما عرَضْت عليّا الجواز في الفترة دي وسيبتني كنت بحاول أرضيك.

- أنا عمري ما سيبتك يا ديلارا! وكنت بس سايبك تفكري.. بس عمري ما تخيّلت إنك بكده بترضيني، وكمان على حسَاب نفسك؟! دا أنا اللي كنت دايمًا بكُون معاكي في جنانِك وأحلامك والحاجات اللي بتعوزي تعملها!

- يا مازن انتَ دايمًا بتبقى خايف.. خايف تجرّب، وخايف عليّا وقلقان مني وعليّا، وحتى كل حاجة كنت بتحبّها سيبتها وماكمّلتهاش! ماكنتش أنا السبب!

كان نقاشي معه يومها كأن جزءًا من الجحيم قد فُتِح بيننا؛ فلم نعد الصديقين المحِبَّين، ولا الطفلين اللذين يكتشفان الحياة معًا، بل نؤلم بعضنا بعضًا! وهكذا كنت أفعل!

مازن:

- قصدِك إيه؟! أنا بَعمل كل اللي أنا عاوزه؟!

ديلارا:

- قصدَك كل اللي همّا عاوزينه! أهلَك.. أبوك.. أمك، صح ولا لأ؟

- أنا بَرضِي رغبة أمي وأبويا الله يرحمه، همّا كانوا عاوزنّي دايمًا أكون مهندس وناجح في عيونهم، مش زيّك هربت وخبّيت وبقيت أعمل الحاجات من وراها وأخبيها!

- تقصد الجيتار اللي بخبّيه عندك لما بحب أعزف؟! طب ورسوماتك اللي بتخبّيها في الأدراج! مش دا حلمك.. إنك تدخل فنون جميلة وترسم، مش دي الحاجة اللي كنت بتحبها؟!

توقف عقلِي تمامًا وأنا أجلس بسيارة عاليَة وأنظر من خارج النافذة، ويمر المشهد بعيوني كأنما هو مشهد على الطريق لا ينتهي، بل يتحرك معي وتخترق كلماته أذني حتى نهايته وتوتري ورحيلي!

مازن:

- أنا خلاص مش عاوز أتكلم!

ديلارا:

- ولا أنا كمان يا مازن!

وزادت المشاهد بعيني الممتلئة بدموعي، ومن الغضب الذي حدثت به مازن حينها.. وأنا أُسرِع لأخرج من عنده، وإسراعه خلفي وإصراري أن لا أرى بعدها أحدًا..

ديلارا:

- سيبني أمشي.

مازن:

- بقولّك مش هَتِمشِي من هنا! فاهمة؟!

ومحاولته لتهدئتي وأنا أقف بجوار باب شقته، وأزيحُ عينيّ عنه ويتملّكني الجنون، أريد الرحيل ولا شيء يستطيع أن يوقفني، حتى صديقي الذي طالما أحببتُ، وكان معي!

وعندما أمسَكَ بذراعي وقمتُ بإطاحة يده عني لم أكن أرغب في أن يمسك بي! إن بداخلي يفور، وتركتُ مازن يومها في حالة من الذهول،

لقد جرحتُه ووضعتُ بيدي بداخِلِه جرحًا لا يلتئم؛ فلا يمكنني بعد كل هذا أن أعود إليه من حيث بداية ما فعلت به.

تحدثتُ كثيرًا مع عاليَة، وهدأ عقلي، وأراحَت هي بطيبتها قلبي، وببعضٍ من جنانها الذي أحبه وجناني معها جعَلْنا الوقت به شيءٌ يبهجنا أخرجني من كل هذا، حتى عدتُ للمنزل وأمي تخشى فراقي؛ فحضنتها طويلًا..

-يوسف-

يوسف:

- وحشتيني.

ديلارا:

- وانت كمان يا يوسف.

- أنا آسف إني حطيتِك في كل اللي حصل ده! والحادثة دي!

- الحمد لله إنَّك بخير.

- أنا كنت فرحان جدًا يوم الحفلة، وكنت حاسِس وأنا سايق إني طاير بيكي من فرحتي.

- أنا كمان كنت فرحانَة وحسِّيت إن أحلامي اللي كنت بتمنّاها زمان اتحقّقِت.. واتحققت بسببك يا يوسف!

- طب هترجعي امتى؟ ولا إسكندرية ما وحشتِكِيش؟!

- حقيقي أكتر من أي وقت!

تعلّقَ قلبي بكلماتها تلك، وصوتها وهو يغزو قلبي؛ فنسيتُ كل ما بي من ألم من نتاج الحادث، وتمنيتُ فقط أن تكون أمامي، وأحضنها وأعتذر عما فعلته بها.

أشتاقُها أكثر كلّما زاد الوقت والبعد! وأردتُ أن أطمئِنّ أنها تشتاقني كما أشتاقها!

يوسف:

- على كدا بقى أنا ماوحَشْتِكِيش!

- أنا عاوزاك تبقى كويس بس.

- انتِي بتهربي يعني كدا؟! عارفَه يا ديلارا لو ما جيتيش..

- هيحصل إيه؟!

- هجيلك أنا!

- ماتهزّرش يا يوسف! انتَ لسّه جسمك فيه كسور وتعبان!

أعجبَني لهفتها التي نبضَت من صوتها الذي أعشقه، وخوفها عليّ يجعلني أحبها أكثر..

يوسف:

- ياه ما هو لو همّك كدا بجد كنتِي بقيتِي هنا! بس بُصِّي.. أنا كنت عاوزك كمان في حاجة تانية!

ديلارا:

- مش فاهمة قول!

- خلاص يبقى لما تيجي هقولّك!

- حاضر يا يوسف.

أغلقتُ الهاتف وتنهيدتُها الأخيرة عالقة بصدري وكلماتها، كأنما انتظرت عمرًا بأكمله حتى تعود وتكون معي مجددًا، وأن أستطيع أن أعود لنفسي أيضًا معها، ولكن من نبرة صوتها شعرت بشيء ما تخفيه، ومكالمتنا لم تكُن كافية لأفهم منها ما يحدث! إنها تخفِي عليّ شيئًا والقلق يزيد توتري، وزادَت رغبتي بالبعد عن التفكير بسجائري، ولكن يبدو أني ازددتُ شراهة في تدخيني عن ذي قبل، ولم أعُد أتحمّل الجلوس بمنزلي.. مر شهر وأريد الخروج؛ فأنا بخير!

ومع مكالمة أخرى مع صديقة لي زادت سعادتي أن الحفلة التي أقمناها كان لها صدى جيد وجمهور، ويزيد من إمكانية عمل حفلات أخرى، ولكنّي أنتظر الفرصة المناسبة؛ لأغتنمُها ولتعود الفرقة كما كانت.. أشعر بذلك، ودائمًا كان إحساسي لا يخطئ.. على الرغم من جنوني وتهوري إلا أن حدسي لا يعجزه شيء!

-نوران-

(والله ما طلعَتْ شمسٌ ولا غربَت

إلا وحبّك مقرونٌ بأنفاسي

ولا خلوتُ إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثِي بين جُلاسِي

ولا ذكرتُك محزُونًا ولا فرحًا

إلا وأنتَ بقلبي بين وسواسي)

عكفتُ أستمع لكلمات قصيدة "الحلاج" وأذوب بين معانيها، يا الله على جمالها وجمال المعاني! وشعرتُ أن نبض قلبي في كل سطر من سطورها يحِنّ ويرق: فأردد: الله.. الله.. الله.. فيطيب صدري ويهدأ قلبي؛ فالله هو نور القلب، وامتداد الوصل، وعلو الروح.

ترفقتُ بحال صديقي، ودعوتُ الله له كثيرًا بأن يترفّق بحاله، وأن يطيب خاطره، وأن يسكنَ ما به.

رأيتُه يبكي لأول مرة؛ فهوَى قلبي معه وبكى القلب، وجوارحِي ما ترضَى له الشقاء، ولكنه أمر الله وهو الأحنّ بنا جميعًا مما نحن نظنّ، وأودَعْتُ سرّي بأن الحب قد زارَ قلبي بعد طول انتظار، وما كنت لأظن أن ألقاه بهذا المكان؛ فكنتُ أطيّبُ قلبِهِ وأتودّد إليه، ولا أعلم أن الله يتودّد إلي؛ فيرسلني إليه كلما احتاجني، ووالله ما أردتُ أن أتعلق ببشر، ولا أن يميلَ القلب، ولكني بشر أيضًا.. أشعر.. وأحب، وأُصدِقُ القولَ أنّي نسيت لوقتٍ طويل علاقات الحب، وما تركتها هروبًا، ولكني

تحطّمتُ كثيرًا وآلمني ما قد مضَى من حياتي، حتى رأيت مازن وصرنا أصدقاء، ووجدتُ به الوَنَس وحسن الرفقة، ولكني كنتُ أرى دائمًا في عينيه حبًا يشغله؛ فلم أكن غير صديقة، والبُوصْلَة التي يجد معها طريق، كما قال لي في إحدى المرات.

عملْنا سويًا وهو كان صديقي ومرشدي، وأنساني خلافاتي الكثيرة مع أهلي وبعد فسخ خطوبتي، وبعد ذلك رأيتُه بحزنه العميق مع رحيل صديقة طفولته، وكم ضاع وشردَ في هذه الفترات! وعندما مرضَت أمه كنتُ أجدني معه، ويحتاجني في تلك المحنة، ولكن ها هو قلبي يحنّ إليه ولا يتركني دون أن أراه أو أحدثه؛ فرفقًا أيها القلب، ودعوت الله لي وله كثيرًا.

رفقًا بنا يا الله.. فأنت أعلم.. فلتكن معي.

-مازن-

تبدو كل الأشياء صغيرة ولا تهمّ، والحزن ضخم أمامها، يحيط القلب كمارِدٍ عظيم! تظنّ أنك وحدكَ مع هذا المارد، وأن كل الأشياء حولَكَ تتفاقم؛ حتى تمتدّ إليكَ يدٌ أكبر منه ومنك، الله يمدّ إليك يد الرحمة ويرسل لك معها نسائم المحبة، وتكون مع تلك الحياة القاتمة سكنٌ عظيمٌ بقدر معاناتك وبقدر دعائك، وكنت أدعو الله كثيرًا..

(وما كنتُ بدعائِك ربّي شقيًا)

فيستجيبُ لدعائي ويرحمني، كما أرسل لي ملاكًا من قبل تحيطني وتترفق لحالي؛ فكلما نظرتُ إلى نوران رأيتُ رحمةَ الله بها؛ فيهدأ قلبي وتسكن روحي، ولكنه الجسد، جسدي الواهن ظلّ يئنّ حتى أدركتُ ما فعلتُ به، وكيف تركتُ الأيام تمضي وأنا لا أشعر بما جنَيْتُه على جسدي، وأن لجسدك عليك حق، حتى جاء الأنين والألم يتوزّع على أعضائي؛ فيأخذ جزءًا جزءًا ويتناوبان عليّ؛ حتى أغفو من شدة إرهاقي، حاولتُ كثيرًا أن أطمئِنّ على إخوتي، ولكن ما أجده أني أريد الوحدة ولو قليلًا، ورحمةً بي كانوا يجلسون حولي كل يوم في هدوء، وترسلهُم أمهم بطعام لمحاولة تعويضي عن ما تبقّى لي من عائلتي، كنتُ أنا من يحتاجهم، ووجودهم معي دون فعل أي شيء كان كافيًا جدًا، لم أعتَدهُم بهذا الهدوء! ولكنهم كانوا أكثر رحمة وإدراكًا لِمَا أمر به.

ولكن رؤية ديلارا كانت شيئًا أخر.. ديلارا كانت لي ملاذًا آمنًا من قبل، إلا أنها جعلتْني أرى عيوبي؛ فأقف أمامها أريد أن أحضنها، ولكني أتراجع.. يصيبني الإحباط! ومع حبي لها فقد كانت مرآتي أرَى بها عيوبي، ومخاوفي تزداد أمامي، أرى من خلالها ما لا يعجبني في نفسي، معها كانت قوتي تزداد، ولكن في هذه الفترات لم أعُد أقوى على شيء،

هاجمتني مشاعري وأتجاهلها كثيرًا، وعاد الشكّ إلى عقلي ليفترسني ويلقِي بي ضحيّةَ تهاوني ومخاوفي، تلك التي حبستها كثيرًا، وها هي تقتحم حياتي بكل ما فيها؛ لتعيد صراعي القديم الدائم مع نفسي.

ولكني الآن أشفق عليّ وأريد أن أتصالح مع نفسي، لا يمكنني الهرب أو الندم، أو معاتبة النفس والاستمرار علي إيلامها؛ فهذا يكفي!

لقد مررتُ بالكثير وأريد أن يمرّ كل هذا، وأن أعود ولو قليلًا إلى هدوء وسلامِ نفسي.. اتكأتُ على جسدي الواهن ووقفت للصلاة؛ فهي بُوصْلَتِي بعدما فقدتُ الاتجاه ولا أحد يرشدني؛ فتضرعتُ إلى الله أن يسكن ألمي، ويلهمَ نفسي الصبر والسلوان، وأن يريح القلب والروح.

-يوسف-

الوقت يمر بي وأنا جالس مع صديقي، لا يمنحني التفكير غير شكوك زائدة، وبعضًا من وساوس!

جو:

- مالَك يا بني فيه إيه؟!

يوسف:

- مالي!

- هو احنا هنخرجّك وتقعدلنا ساكت كده! فيه إيه؟!

- دماغي مشغولة يا جُو والله.

- دماغك! آه هي دماغك فعلًا.. مش حاجة تانية يعني؟!

- مش وقتك والله.

- طب إيه هَنعمل إيه؟! من ساعة الحادثة بتاعتك من شهرين ومانزلناش بروفات، إيه نسيت السفر؟!

- لا مانسِتْش وفاكر، وهنرجع تاني.. ماتقلقش!

زاد حنقي، وحتى تلك الأحاديث بيني وبين الرفاق لم تقلّل هذا الشرود، وعقلي الذي لا يهدأ من التفكير في ديلارا!

(ماذا تفعل كل هذه المدة منذ أن قالت لي إنها ستعود للإسكندرية وسأراها؟!)

يساورني القلق ولم أعد أطيق غيابها أكثر من ذلك، عقدتُ العزم على رؤيتها، وعلى الرغم من محاولات هروبها مني وأسئلتي الكثيرة إلا أنّي لن أهدأ، تحسّنَت قدمي ويمكنني المشي عليها مع عكاز؛ فقد مرّ

العديد من جلسات العلاج الطبيعي، وأستطيع أن أذهب إليها، فإن لم تأتِ هي لي؛ إذَن لم تترُك ليَ الخيار.

(مش بمزاجك يا ديلارا تسبيني محتار كدا فيكِ..)

-ديلارا-

وقفت أمامه، يقتلني الحزن الممتلئ بعينيه..!

تجمدَت أطرافي، وحاولتُ جاهدة أن أبدو قوية، ولكن دموعي المنهمرة فضحَت أمري، لم أتمالك نفسي أمامه؛ فحضنته وهو صامت لا يعاتب أو يشكو، شعرتُ بقلبه ينبض كوتيرة قلبي سريعًا، وأطرافه مثل أطرافي أصبحَت كأصابع من الثلج، توقفَت اللحظة عني تمامًا، وتوقف الزمن وصرنا معًا كجسد واحد متلاصق، أرواحُنا المتصلة وقوة لم أعرف من أين جاءت وأحاطتني؛ كأنما ارتفعَت عنِّي قدماي ورأيتُ أني بعالم آخر، هكذا تبدّل العالم، انتبهت إلى اسمي الذي ألقاه هو بأذني؛ فعدتُ من السماء إلى الأرض كروحٍ تعلقت به، وجسد..

مازن:

- ديلارا!

ديلارا:

- مازن! أنا آسفة.

تباعد عني قليلًا، وكلما ابتعد شعرتُ أن جزءًا مني ابتعد عنّي، حتى وجدتُني وحدي.. هدأت، ودخلت وراءه إلى شقة أمه الراحلة، والتي آلَمَنِي رحيلُها وآلمَنِي أكثر تألّمه، وما به الآن مني ومن الحياة، أرجو أن يسامحني.

تتبعتُه كقطة صغيرة لا تعرف إلى أين تذهب، ولا تعرف غيره، دخلتُ خلفه إلى غرفته التي لم أدخلها منذ سنوات، ووجدتُ لوحات كثيرة ذات أحجام مختلفة من فحم وألوان "Oil"، وبها الكثير من ملامحي! ولكن تعلّقَت عيناي بإحداها، كانت لطفلين صغيرين، الفتاة

تجلس على الأرجوحة وخلفها الصغير، وحولهما الكثير من الفرشات الزرقاء، إنها تذكرني بنَا، وهذه الفراشات تذكرني بفستاني الأزرق وفراشاته الملونة ونحن صغار، لم أستطع أن أصمت؛ فأخذتني الشجاعة والفضول..

(مازِن.. انتَ رجِعْت ترسم؟!)

لم يجبني! بل جلس كأنما لا أحد غيره بالغرفة؛ فجلست إلى جواره وأمضيتُ هذه الساعات دون أن ينطق مازن حرفًا، وكنت أبقَى معه، حتى عندما يغادر الغرفة أتتبّعه! شعرتُ أن قلبه متصل بقلبي، حتى غادرني إلى الحمام، وما إن عاد حتى وجدتُه يقف أمامي يلفظ الكلمات بمقاومة شديدة..

مازن:

- أنا مش قادر خلاص!

ودون مقاومة لأقترب منه، حتى فاض عنه بكاؤه؛ فسقط قلبي فجأة؛ فحضنته مجددًا وقلبي يؤلمني وعقلي يفور، وجوانحي جميعها تنتفض؛ فبكيتُ معه!

-نوران-

يا مُتلِفِي..

ماذا فعلتُ بكَ لتفعلَ بي هكذا..

خطواتِي التي سبقَت سيارتي، وروحي التي تشتاق أن تصل قبل جسدي، وعيناي التي ترغب أن تراه، وقلبي الذي يتمنَّى أن يضمه، وعقلي يراجعني وما أنا بنفسي فاعلة! حتى أعرف إلى أين قد يذهب بي الطريق؟!

وصلتُ إلى منزله وترجَّلتُ من سيارتي، وقلبي نبض فجأة لا أعلم لِمَ؟! لا أعلم لماذا عندما وصلت أريد أن أعود، وأن لا أصعد إليه؟! تحيطني روحي، ولكن ربما قلبي خَشِيَ التعلق، وألّا أجد نفسي بعدها، ولكني تلوتُ دعواتي كما أفعل دائمًا، وارتاحت نفسي.

وطرقتُ الباب، وما على المشتاق إلا اللقاء؛ فهدأ القلب ويرتاح، فتحَت لي التي أظن أني عرفتها من قبل من حديثه عنها، ولكن شعرتُ أيضًا أني أعرفها روحًا قبل اللقاء، وقبل أن أراها بالمَشْفَى.. ابتسمَت لي وقبّلَتْني كأني إحدى صديقاتها؛ فأحببتها منذ اللحظة الأولى؛ فهي لطيفة وتلقائية تجعل من يراها يحبها منذ اللحظة الأولى، ولكن عينيّ بحثَت عمن جئت من أجله، وشوقي إلى رؤياه يفوق أن أنتظر وأجلس حتى..

ديلارا:

- مازن جوّه.. ثواني.

نوران:

- هو كويس؟! أنا جيت أطمّن عليه وأشوفه.

- لسّه شوية، بس الحمد لله.

قلبي ينبض سريعًا؛ فوجدته يأتي إليّ هادئًا، والحزن يخيم على روحه قبل جسده -يا الله أنت اللطيف الخبير-؛ فدعوتُ الله أن يريح القلب، ويسكن الجسد، ويحرّر الروح، وضعتُ ما بيدي من مشتريات للمنزل جلبتُها معي، وأخذَتْها مني ديلارا.

ديلارا:

- شكراً يا نوران..

نوران:

- لا عادي ماتشكُرنِيش.

ابتسم قليلًا لي؛ ففرح القلبُ، وتعجبتُ من لمعة خفية من عينيه، تشبه البكاء حتى أزاح وجهه عني ناظرًا لديلارا بأن تُجلِسَنِي، ولكني لم أستطع أن أبقى طويلًا، إن قلبي يزداد في دقاته؛ عليّ الرحيل، وعندما أصررتُ على ذلك وجدتُ الصديقة اللطيفة تحضنُنِي بقوة أحببتها.

كم كنتُ أحتاج هذا الحضن! وأن أرى مازن، وودّعتُه، وسمعت صوته الحانق بكلمة واحدة لم يجد غيرها ربّما..

نوران:

- أنا لازم أمشي!

ديلارا:

- طب استنّي أنا كنت هَنزل!

نوران:

- لا عادي.. خليكي! مع السلامة.. أشوفِك تاني بإذن الله، خد بالك من نفسك يا مازن.

مازن:

- وانتِي كمان.

رحلَت قدماي، ولكنها صارت مثل شجرة بلوط عتيقة زُرعَت عنده، وتمتَدّ بدلًا من أوصالي جذورُها عميقًا عميقًا بداخلي، ولا يمكنني أن أنزعها من هذا المكان، إلا أني أخذتُ فقط الفروع حتى يمكنني أن أعود؛ فقلبي لم يعُد معي، وروحي هائمة في عالمها، وجسدي يخذلني بشيء من ألمٍ سابق بقدميّ اللتين ما زالتا تتذكّران ألم الحادثة؛ فتمنّيتُ أن أطيل الجلوس، ولكن ما بالقلب حيلة، ورحلتُ أتلو دعواتي له ولي، وأخذت أستمع إلى " قصيدة ابن الفارض" برحلتِي العائدة لحياتي وعالمي.

(يا مُتلِفِي)

قلبي يُحَدّثني بأَنّكَ مُتْلِفِي

روحي فِداكَ عرَفْتَ أمَ لَمْ تَعْرِفِ

لم أَقْضِ حَقّ هَواكَ إن كُنتُ الّذِي

لم أَقْضِ فيه أسًى ومِثليَ مَنْ يَفي

ما لي سِوَى رُوحِي وباذِلُ نفسِهِ

في حُبّ مَن يَهْواهُ ليسَ بِمُسرِف

فلَئِنْ رَضِيتَ بها فقد أسعَفْتَني

يا خَيبَة المَسْعَى إذا لم تُسْعِفِ

-يوسف-

هل يمكن أن يعود كل شيء مجددًا؟!

أن تعود هي! أن أعود أنا! أن نعود معًا كما كنا! محدثًا نفسي..

(بالسرعة دي لحِقْت تحبها! وتتجنّن؟)

اتخذتُ قراري ولم أجد غير أني أفتقدها وأفتقد نفسي، وعن هدوء الحياة وجنوني معها.. ابتسمتُ عند وصولي القاهرة، إنّ الحياة التي غابَت، وجسدي الذي لم يرتَح لليالٍ كثيرة، وعقلي الذي كاد أن يُجنّ، هي فقط ساعات وبعدها أُلقِي كل ما يشغلني خلف ظهري.

ودّعتُ صديقي الذي أوصلني للقاهرة وجلستُ في أحد الكافيهات، أرتّب حالي وعقلي الذي يحسبُ كل كلمة عليّ أن أقولها، كل شيء يجب أن يكون في أحسن حال الآن، وعليّ أن أكون كما أنا؛ فهي تعرف أني مغامر.

تحررتُ أخيرًا من تساؤلات أمي الكثيرة، حتى اتخذتُ قرارًا وعقدتُ عزمي عليه، مكالمة ديلارا الأخيرة، مرّ عليها أيام، وهذا كافٍ جدًا ليصيبني بالجنون؛ فلا بأس بقليلٍ من التهور منذ الحادث إذَن.. وهاتفتُها وأخبرتها بوجودي!

يوسف:

- هنشوف هتهربِي مني ازّاي بقى المرة دي يا ديلارا هانم!

ديلارا:

- يوسف انت بتهزّر! انت في القاهرة؟! ورجلَك؟!

- ماتقلقيش عليّا.. انتِي بقي فينك، انتي وحشتيني.

- أنا كنت مع عاليَة ومروّحَه، بس طبعًا عاوزَه أشوفك.

- هو دا بمزاجِك أصلًا؟! غصب عنّك يعني!

- هههه حاضر.

تحركتُ على قدمي قليلًا كالعاجز محاولًا أن أترك عكازي، ولأن تمارين العلاج الطبيعي أفادتني؛ فيمكنني أن أترك تلك العصا العجوز، وأعود شابًا وسيمًا مجددًا.

وكما خططتُ لهذه السفرية حتى تكتمل عليّ أن أضع مع صديق آخر أشيائي وعكازي، وتعجبت من نفسي؛ أتهرّب من قدمي ولا أتهرّب من الحب! أبدو أحمقًا جدًا في هذه اللحظة، ولكني سعيد!

-مازن-

الحطام..

لِمَ يبدُو أنّ الحطام هو كل ما يليق بحياتي الآن؟! ولا يبدو لي مَن فعل بي ذلك! فقد تحطّمتُ، ولكن لِمَ الحزن يرافق الخيبة فترافق صدري؟! كلما هدأ الحزن شعرتُ بالخيبة والندم، وكلما هدأت الخيبة شعرتُ بالشك والقلق يحطم رأسي، ويعتصر الظن قلبي ويغلفه!

تحاملتُ على ذاتي المنكسرة وتوضأت؛ لأهدَأ وأن أعود لأصلّي، وأن أجعل الله هو معي؛ فتسكنُني الطمأنينة وتطردُ الشكّ والقلق والخيبة من داخلي، لا أعرف لمَ كبرتُ هكذا سريعًا؟! لا أبدو أبدًا شابًا في مقتبل العشرينيات!

كنت دائمًا هادئًا متزنًا، عقلي يكبرني حتى كبرتُ عنه وعن سني الفعلي، ولا يمكنني أن أعود لطفولتي، أو أن أضحكَ على نفسي بأني أشعر بأن جزءًا كبيرًا منها قد رحل، وأن باقي عمري تُرِكَت لي المسئولية، حتى ما عادت السنوات تهمّ، ولكن بهذه اللحظة شعرتُ بكبري، وأن العجز ينخر في أوتاري؛ كأنما عشْتُ ألف عام، هكذا إذَن عندما تموت الأم.. نُعجّزُ بعدها فجأة، ألا يوجد مراحل لذلك؟! فقط يشيب الإنسان عندما يفقد أحبابه، كلما رحلَ أحدٌ منهم فقَدَ جزءًا منه معه، وتبقى الذكريات التي جمعتكَ به، حتى تصير مثل: صور سوداء ألوانها بُهتَت مع الزمن، وحتى الشعيرات البيضاء التي تغزُوك بعد ذلك ما هي إلا حنين لهم، وليخبرنا أن لنا أحبة ذهبوا عنّا ولن يعودوا، ولن نعود أبدًا بعدها كما كنا.

جلستُ أتفقّد مجلس أمي الراحلة في سكون، حتى سمعتُ طرقًا علي الباب، ودون رغبة مني لأجيبه فعلًا، حتى وجدتُها أمامي بعينيها الممتلئتين بالمشاعر، تجمّدَت أطرافي منذ أن رأيتها، وشعرَ قلبي

بالاضطراب حتى زادَت دقاته، وحضنَتْني، شعرتُ بسريان دفءٍ غريب بجسدي، وأن حضنها لي كان ساكنًا جدًا، تذكرتُ حينها شعوري مسبقًا كلحظة (شعور آدم عند خروجه من الجنة) والعودة إليها، هكذا شعرت..

عندما بعدَت عني ديلارا ورحلَت، شعرت بأني آدم في أرض واسعة لا أجد بها حوائي، وعندما عادت علمتُ أني قد خرجتُ من الجنة بالفعل، ولكن يظل حضنها هي جنّتي ورحيلها هو اختباري، كما كان اختبار آدم وبنيه في هذه الأرض.

بكَت وهي تحضنني، ولم يمكنني أن أوقفها؛ فقلبي بين يديها، والله ما أردت حينها إلا أن ينتشله الله؛ فهو هالك، وحضنُها صار حانقًا جدًا؛ فأبعَدتُ نفسي عنها قليلًا وجلسنا، لا يسعفني كلمات ولا حروف؛ فجلستُ بلا حراك وبلا روح، عيناي تراها، ولكن أريد أن أبدوَ قويًا ولم أكُن، بقيَت هي معي، حتى تركتُها هاربًا لغرفتي؛ فتتبّعَتني كظِلٍّ ينكسر الضوء نحوها كانكسار قلبي معها، رأَت اللوحات التي رسمتُها على مدار شهور، بل ولسنوات وكنت أخبئها عنها؛ حتى لا تعرف بحبي لها!

تركتُها تدور حولي كفراشة تحوم حول الضوء، ولكني معتم! فلما هي تدور حولي وتجد بي شيئًا يجذبها! وحتى عندما ذهبتُ لأغتسل وأضعُ بعض الماء البارد فوق رأسي المحموم من شدة اختناقي سارَت خلفي، أهرب أنا منكِ الآن أم أنكِ لا تريدين غير إنهاكِ قواي يا ديلارا؟! ماذا عليّ أن أفعل؟! إن جسدِي لم يعد يحتمل!

وعندما عدتُ وجدتُني كريشة في مهب الرياح لِمَ تعصف بي هكذا؟! ألا ترحم اشتياقي إليها ورغبتي في أن لا أراها كل هذه المدة؟! إنّي متعب للغاية، ورحيل أمي يؤلمني!

البكاء لم يكن أفضل خصالي، ولكني قاومته بشدة، منذ أيام وأنا صامد أصلي وأبكي، لا أريد أن أبكي لأحد، حتى وجدتني أبكي أمامها، ولكن هذا لم يُرِح قلبي فحسب بل قلبها أيضًا، جعلنا نعود ولو للحظة

كما كنّا صغارًا متقاربين في المشاعر وقريبين في احتواء بعضنا بعضًا، وقبل أن تهدأ للحظات توقّفَ عقلي، وتذكرت لوهله نوران؛ كأنما بصيصٌ من النور جاء من وسط الظلام؛ فنبض قلبي فجأة، وجاءت طرقات الباب مجددًا، وقلبي يخبرني أنها نوران! فلقد استحضرَتْها روحي.. وأرجو أن أراها.. وتكون معي!

-ديلارا-

مهزومة..

شعرتُ أني بهزيمة ما! إن الحياة تهزمني وتحاصرني وتأخذني عنوة، كلما اقتربتُ من شيء أريده؛ تبعدني عنه، وعندما أعتاد الخسارة وأجد ما يعيدني إليها تجبرني على الرحيل.. على التناسي.. على الفقد، ربما لأني لم أرضَ يومًا عن فقدي أبي؛ لأنه كان صديقِي الأول، ومأمنَ أسراري، كنت أهربُ إليه من أمي ويضحكني، وكنا سويًا معًا نضحك ونغلب الحياة بتفاؤلنا، كان يثق بي دائمًا ويراني فتاته الجميلة، لم يحاصرني أبدًا، بل جعلَ لي الحياة مغامرة كبيرة تستحقّ أن أحيا من أجلها، وكم مرّت ليالٍ وأنا أشعر أنّني استمرَرْتُ بهذه الحياة من أجل فقط أن لا أخذله وهو بين يدي الله، إلا أنه بقلبي دائمًا، روحُه تبقى في عالم آخر.

عندما رحلتُ من عند مازن، وفي طريق عودتي كنت أتخبّطُ: أريد أن أُلقِي بنفسي في حضن أحدهم وأن أبكي.. أبكي كثيرًا، وأن أنام لا يشغلني شيء أو أحد، لم أعُد قادرة على شعوري بالخذلان، لم أعد أستطيع.

وعندما وصلت إلى منزلي وجدتُ أمي تأخذني من يدي في تعجل غريب، لم تكن تلك عادتها حتى وجدتُه! وجدتُ يوسف أمامي يجلس في غرفة الصالون بمنزلنا! ماذا؟!

ديلارا:

- يوسف؟!

يوسف:

- ازّيّك يا ديلارا!

- إيه اللي جابك؟ وازّاي جيت هنا؟!

- يعني مَفيش حمد الله على سلامتك! إيه ماكُنتِيش عاوزه تشوفيني ولا إيه؟!

- لا آسفة.. حمد الله على سلامتك!

حاولتُ أن أداري تفاجُئِي من مجيء يوسف، وتوتري الذي ازداد مع ارتعاشات يدي، ولماذا لم أشعر أن وجوده هذا جيد؟! إني أشتاق إلى يوسف وأحبه، ولكن هذه المفاجأة لم تريحني!

ديلارا:

- اتعرّفْت على ماما؟!

يوسف:

- آه طبعا.. راقية مامتك دي قمر، أحلى منك على فكرة.

- راقية! كدا من غير ألقاب؟! لا دا انت تتقدّملها بقى!

- يعني.. بفكّر!

- بتفكّر في إيه؟!

وعلى الرغم من مقاطعة أمي لحديثي مع يوسف وهي تومئ لي بأن آخذ من يديها الصينية بالمطبخ، شعرتُ بالغرابة في كل شيء! ورأيت عمي صادق، كان بالمنزل أيضًا!

يوسف.. أمي.. وعمي صادق! كلهم معًا يالَلغرابة! والأغرب قدوم عمي صادق إلينا وجلوسه مع يوسف، ويكمل حديثه كأنما أنا من قاطعهم!

ديلارا:

- ماما، هو انتِي ليه ماقولتليش إن يوسف هنا؟!

راقية:

- هو طلب مننا إنه يقعد معانا!

- مش فاهمة!

- تفهمي إيه؟! احنا لسه بنفهم أهو!

ومن خلال حديثهم مع يوسف تعجبتُ من سعادة أمي به، وأنّها لم تلُمْه على الحادث، أو حتى على وجودي معه في الإسكندرية! لم أفهَم سبب أحاديثه معهم حتى الآن، حتى أفصح يوسف عن سبب الزيارة المفاجئة ورغبته في الارتباط بي!

ديلارا:

- جواز؟!

يوسف:

- أيوه يا ديلارا!

انسحبتُ من حديثهم مع يوسف، ولُمتُه بنظرة عيني التي لم أستطِع أن أخفيها، لقد أغضبني حقًا هذه المرة، لقد فاجأني وتركني مثل سمكة أدركَت توًا أنها أُمسِكَت بشبكة الصياد، تحاول جاهدة أن تهرب من الشبكة إلا أنه ينتشلها من البحر، ويضيقُ تنفّسها ويزداد تشنّجها حتى لا تعود للحركة! هكذا فعل يوسف! وهكذا شعرت، ولا أعلم ماذا عليّ أن أفعل؟! عقلي في حالة شلل تام.

-مازن-

عالمان مختلفان وكلاهما يسكنان روحي، أيهما خُلِق لي ليكون سكنًا؟!

عندما رحلَت ديلارا وتركتني مُحمّلًا بذكريات كثيرة جمعتني بها وبحياتنا السابقة لم أحزن، أو أشعرُ أنها لم تكن معي؛ فهي كانت صديقتي دائمًا وحبيبتي، بل افتقدتُها، وكم اشتاقت لها نفسي!

إن قلبي يسامحها، وروحي التي اشتاقَتْها تعلن أنها لم تكن غائبة عني، بل إن روحي أنا وما أحبه وما أردته بهذه الحياة لنفسي هو الذي كان غائبًا عني منذ سنوات.

برحيل ديلارا عدتُ رغمًا عني لأرسمها؛ فعاد لي شغفٌ شعرتُ كم كنتُ كالأموات دونه! وعادت لي رغبتي بالعزلة؛ لأهدأ وأحزن، ولأعلن للحياة عن تمردي عليها، وأنها لم تكن عادلة! إلا أن الحياة تركَت لي حق الاختيار، وحق أن أُعدّل مساري.

وعندما جاءَت نوران من عالم مختلف عني وعن عالمي مع ديلارا وجدتُ أن هنالك حياة أخرى وإنسانة علمتني القوة بالحياة، وعلى الرغم من تألمها إلا أنّها استطاعت أن تُكمِل وأن تجد نفسها، لقد كانت فراشة مضيئة ظهرَت بداخل ظلمتي؛ لتخبرني أن النور دائمًا سيصل، وأن الظلام سيمضِي يومًا ما لا محالة.

بعُزلَتِي عدتُ لصلاتي التي تركتها لسنوات، ومنذ صغري، وبوفاة أمي، ومرور أصعب شهور رحيلِها حتى هدأتُ، وسكن قلبي وارتاح جسدي، وكانت الصلاة هي محياي، والوصل الذي أراح نفسي وجوارحي.

كانت ديلارا في هذه الفترة باهته، تأتي إليّ في سكون لم أعهده منها، ولكنها تحاول أن تخفي عني شيئًا ما يرهقها ولا تريد إرهاقي به، أو أن تتحدث لي عنه، وكنت معها في حالة من الغرابة لا تسمح لكلينا أن نعود كما كنّا! ربما مع الوقت سنعود وربما لا؛ فنحن نتشابه كثيرًا ونختلف تمامًا، ولا نعلم كيف نعود لبعضنا بعضًا، ولكننا نفعل دائمًا.

وفي تلك الليالي كنت أشتاق لنوران؛ فكانت تحضُر لي، ومعها أشعر بالارتياح والنور والسكون؛ حتى كانت صورتها وعيناها اللامعتان يغرقاني في حلاوة ما لا تشبه قبلها شيئًا.

مرّت السنة الحالكة ومشاريعها الكثيرة، وانتهت الدراسة بكل ما فيها، ومرَ هذا العام وكل شيء فيّ قد تغيّر، ربما شيءٌ واحدٌ لم يتغير؛ هو رغبتي أن أجد ذاتي مجددًا، ولغرابة الحياة بعد هذه المعاناة كنتُ أشعر أني أقرب لنفسي من ذي قبل، إلا أنني عانيتُ وتحطمت كثيرًا، ولعدالة الله بأن أرسَلَ لي نوران؛ لتكون بوصله وهداية بهذا الطريق الحالك كما رأيتها وأحببتها من أول لقاء بيننا بالجامعة، وعندما أوصَلَتْني لنساعد بعضنا في أحد المشاريع، ووضعتُ أغنية سمعتها لأول مرة لـ"ريم بنا"، والتي تعشقها نوران.. قائلة:

- إنها قصيدة لمحمود درويش.. أحببتُها وتشبهها..

(أثرُ الفراشة لا يُرَى)

(أثر الفراشة لا يَزُول)

(هو جاذبيّة غامض)

(يستدرجُ المعني)

(ويرحلُ حين يتضّح السبيل)

(هو خفّه الأبديّ في اليومي)

(أشواقٌ إلى أعلى)

(وإشراق جميل)

عندها أدركتُ أن نوران هي لي " أثر الفراشة "، وأن نورها جاء إليّ؛ لينير عتمتي، وأرجو أن لا ترحل عني، وبينما أنا شارد في أفكاري وجدتُ راقية أم ديلارا تهاتفني! ولم أعتَد على مكالمتها مؤخرًا منذ أن عادت ديلارا، إلا من الحين للآخر لتطمئن عليّ، ولكنه شيء ما آخر؛ عقلي يحدثني، ومعرفتي بديلارا أن خطبًا ما يحدث ولم تخبرني عنه بعد!

- نوران -

(أثر الفراشة)

جلستُ أشرب قهوتي بسعادة ورضا وبهجة، وعلى أنغام وكلمات فيروز تعجبتُ من حالي! هل مشاعري هي السبب؟! أم أن الحياة تخبرني أن شيئًا جميلًا سيأتي؟! فروحي بداخلِي تطفو بي، والحب بداخلي كجريان المياه كالشلال للنهر، ويمتلئ ويزيد ويعلو..

ما أجمله الحب! وما أجمل الحياة! وأن نختار أن نسعد بها؛ فنُلقِي بما أحزننا قليلًا، ونفتح نافذة الروح ليسكنها الحب.. كما كنتُ أفتح قلبي وأترك معاناتي وأذهب لدروب الحب، وأحتضن رفقاء الروح، كنت أشتاقُ نفسي حتى وجدتُنِي بعد أن تقبّلتُ تقلُّبَ الحياة وأننا بشر، وأننا بالحياة خلقنا لنتّصِل بالحب، وأن نختار المحبة الصادقة والبهجة في أبسط الأشياء؛ فوجدتني (وجدتُ نوران) التي ضاعت كثيرًا في إرضاء الكثيرين على نفسها؛ فتركتُ إرضاءهم حتى وجدتُ ما أحبه وما أريده.. أريد البساطة والحياة الممتلئة بالحب، وأن أكون حرة سعيدة؛ فواجهتُ وتعلمتُ ألّا أرضَى بغير ذلك، وتركتُ مَن أهملني، ومن أذاني، ومن أصَرّ لأكون طوع أمره؛ حتى يرضى عنّي، وتعلّمتُ أن أحبهم مع وجود هذا الكبر داخلهم، وأن أُرضِي نفسي أولًا.

كنت فرحَة برؤية مازن وأنه يتحسن، وأنني أشعر معه بالراحة والسكون، أحببت الرفقة وصاحبها، وقلبي ممتلئٌ بالبهجة.. أيمكنني أن أخفيها؟! ولكني لا أريد أن أخفيها؛ فهي مِنَ الله، وعدتُ أسمع أغنية أخرى وألحانًا تسعدني، وحمدتُ الله لهذه اللحظات، وسمعت قصيدة لابن عربي حبًا لله..

عَرَفْتُ الهَوى مُذْ عَرَفْتُ هواكَ... وأغْلَقْتُ قَلْبي عَلى مَنْ عَادَاكَ

وقُمْتُ أُناجِيكَ يا مَن تَرى.... خَفايا القُلُوبِ ولَسْنا نراكَ

أحِبُّكَ حُبَّيْنِ؛ حُبَ الهَوى... وحُبًّا لأنَّكَ أهْلٌ لِذَاكَ

فأمّا الذي هُوَ حُبُّ الهَوى.... فَشُغْلِي بذِكْرِكَ عَمَّنْ سِواكَ

وأمّا الذي أنْتَ أهلٌ لَهُ.... فَلَسْتُ أرى الكَوْنَ حَتَّى أراكَ

فلا الحَمْدُ في ذَا ولا ذاكَ لي...

ولكنْ لكَ الحَمْدُ في ذَا وذاكَ.

وإني والله لأحب ما يرسله لي، وأنّي أُحبّ الله في خلقه وفي كل شيء، ويفيضُ قلبي حبًا لخالقي..

وكيف لا أحب وأنا قد خلقتُ حبًا من الله!

عزةً وجلالًا.. وروحِي تشتاق.. روحي لله تحِنّ وتشتاق!

-يوسف-

مرّ عليّ الوقتُ كسيوف تقطعني أشلاء.. جنون ينتابني وشكٌّ وقلق يلازم قلبي.

لم أعرف التعلّق يومًا، فلِمَ يحاصرني هكذا؟! حتى قررتُ الاعتدال وأن أتركها لاختيارها بعدما تقدّمتُ لخطبتها، وتسرعي الذي أصبح عدوًّا لي في هذه الفترة الأخيرة، إلا أن بداخلي يعلم أنها تحبّني، وإن ولعي وجنوني بها له أساس، وليس التسرع ما يشغلني، بل إن موقفها هو ما يقلقني!

عدت للإسكندرية، ومرّ الأسبوع تلو الآخر وأتحدّث مع ديلارا بالهاتف، وتخانقني وتلومني على تسرّعي، وأُصرّ على معرفة موقفها؛ حتى قررتُ أن أهدأ وأن أتركها تهدأ أيضًا، وأن أُوقِفَ هذا الصراع الذي لا أطيقه، وانشغلتُ بالسفرية التي تخص فرقتنا، وحفلة قادمة إلينا، وأرغب حقًّا في عودة الفرقة مرة أخرى؛ لتعود الحياة أهدَأ، بل ولطبيعتها، حتى لم يكُن بالحسبان أو بهذه السرعة غضبُ أشرسَ من عرفتَهُم!

نوال:

- أنت اتجنّنْت يا يوسف؟!

يوسف:

- مالِك يا نونا بس؟!

- رايح تخطب من ورايا! ليه مالَكْش أم! موتّني بالحياة؟! ولا أبوك هو اللي قالّك كدا وفهّمَك إنك راجل عليّا؟

- استهدي بس! أنا ماخطَبْتِش ولا حاجة! هي بس معرفة ومقابلة عادية.

- على أمّك الكلام دا! الحوار دا مش هيتمّ! فاهم؟!

تمالكتُ أعصابي المحترقة من معرفتها المسبقة، ومن لخبطَةِ حياتي في الفترة الأخيرة، وحاولتُ ألّا أضخم الأمر، ولكنه على العكس أصبح أكثر توترًا وضيقًا، ولكن لم يعُد يهمّ، هذا أفضل، كانت ستعرف حتمًا، وتركتُها لحديثٍ آخر معها مع رغبتي في قتل مَنْ أخبرَها! ويبدو أنه والدي؛ فاللذان عرفا بالأمر هو وصديقي "جُو"، من أخبرتهم ما حدث في الأسابيع السابقة، بالتأكيد هو أبي! ولكن هل عاد أبي ونوال يتحدثان! ولم يعودا لتفاهة شجارهما ومشاكلهما منذ الطلاق؛ ليقفا الآن معًا ضدي! أم أنه جنون أمي وإهمال أبي بإخبارها! أعتقدُ أن أمي فقط مغتاظة من أن أبي يعرف قبلها، أو أنها تظن أنه من أراد أن لا أخبرها! حقاً جنون!

-ديلارا-

(لولا الأصدقاء لتوقّفَت الحياة)

لم تتركني عاليَة منذ أن عدتُ للقاهرة، وخاصة بعد ما قام به يوسف، وتوتّر أحوالي مجددًا بالمنزل، وأسئلة أمي المستمرة عنه وعن ما فعلته بالإسكندرية! كنت أريدُ أن أحكي عنه، ولكن لمَ عليّ أن أفعل ذلك الآن؟! وأنا لست متأكدة من مشاعري نحوه! وفي حالة تردّد يلازمني، وأعلم أنه أحد عيوبي، ولكن تهوره أيضًا لا يعجبني! لم تعد صداقتي بمازن في أفضل حالاتها أيضًا، ولكني أقرب إليه منذ شهوري الأخيرة، ولا أريد أن أفقدَه مع شعوي بالابتعاد منه عني، كأن جدارًا قد بُنِيَ بيننا بفعل منّي دون أن أريد ذلك، ولكنه حدث.. أفتقده كثيرًا.

أخذتني عاليَة لأكثر الأماكن التي أحبها، وجلسنا معًا "بتوفلي" مكاننا المفضل، وأكلنا من المطاعم التي لم نكن جربناها من قبل، والكثير من الأيس كريم، ومع أغاني "Play list" الخاصة بعاليَة، ونغمة صوتها المبحوح التي أعشقها، كنّا نغني ونضحك سويًا.. فعليًا لا يمكنها الغناء، ولكنها تجيد اختيار الأغاني، وتأخذني في رحلاتنا بالسيارة Road "trips": فلا أجد غير أن أنسَى وأترك نفسي قليلًا للاستمتاع.

كانت تسخر مني أني أهرب من محبّيني، وهي لم يكن لديها "Boy friend" أصلًا "عِدِل": فتضحكني، وتصف يوسف بأنه في غاية الوسامة ومواصفات رائعة، ولكني كنتُ أضحك معها وبداخلي يرتجف! لِمَ أشعر بهذا الان؟! لِمَ يقلقُني يوسف إلى هذا الحد؟! وحتى عندما أخبرني بالسفر للفرقة لم أقفِزْ من السعادة، وكم كنت أشتاقهم وأشتاق لجلوسنا معًا وللعزف معهم على الجيتار!

وأعلم أن بعد حادث يوسف لم يعُد كل شيء كما كان، ليس ليوسف ولي فحسب، بل لنا جميعًا؛ فقد توقفوا عن التمارين، كما أن

صديقتي إكرام ستسافر لأهلها بالمغرب، فحتى لو أردت أن أعود للإسكندرية لن أقيم معها؛ فقد تغيّرَ كل شيء بالإسكندرية الآن، كما تغير كل شيء بالقاهرة، وصرت معلّقَة بسببي أنا وليس بسبب أحد آخر، رأت عاليَة بعيني دموعًا مع أغنية "Help I lost my self again ..."

عالية:

- إيه يا بنتي بس؟!

ديلارا:

- مخنوقة يا عاليَة! حاسّة إني بلفّ حولين نفسي وخايفة!

- انتِي خايفَه من إيه؟! أعمل بيكِي حادثة زي يوسف! لا ماتخافيش هدّي السرعة أهو.

- لا ماأقصدش.

- أمال مالك فيه إيه؟!

- أنا سِبْت كل حاجة ورايا يا عاليَة.. الكلية والسنة الأخيرة ومازن وماما! وكل حاجة، وماكنتش صح، بس كنت محتاجة دا قوي.. إني ألقى نفسي.. بس خايفَة جدًا دلوقتِي!

- بصّي.. ماتقلقِيش من حكاية الجامعة دي.. هساعدك لمّا نرجع الترم التاني، وهو ترم مش أكتر وانتِي شاطرة وهتعرفي تخلصي، أما مامتك فخلاص يعني بقى أهي سامحتك! ومازن اممم.. مش عارفَه، بس انتِي بتشوفيه على الأقل.

وعلى الرغم من طمأنة عاليَة لي وتصديقي في حديثها، إلا أن شيئًا ما بداخلي لا يُريحني، ولا يمكنني أن أتجاهل ما أشعر به ولو لمرة، وأغمضت عيني وعدتُ أغني مع عاليَة..I let her go))

Well you only need the light when it's burning low

Only miss the sun when it starts to snow

Only know you love her when you let her go

Only know you've been high when you're feeling low

Only hate the road when you're missing home

Only know you love her when you let her go

And you let her go

وتعالت نغماتها مع سرعة عاليَة بالسيارة في شوارع القاهرة ليلًا، وهذا أكثر ما أعشقه بها؛ عندما تصبح أكثر أنوارًا وهدوءًا، وتذكرت حينها يوسف؛ فهو يعشق هذه الأغنية؛ فابتسمت..

-مازن-

وقفتُ أمام البحر.. تتلاطَم أمواجه أمامي وتتكسر؛ فتذكّرُني بأيامي السابقة وتلاطمها بروحي وانكساراتي، ولكن به راحة عجيبة تسحبني بداخلها، حتى يعود مرة أخرى تعلو أمواجه وتنسحب.

ربما أردتُ الراحة والسكون فيما مضى، ولكن الآن لم أُرِد غير أن أقف على قدمي، وأن أترك كل شيء لأقدار الله؛ فليدبرها كيفما شاء، حتى هدأت روحي وارتاح جسدي وعقلي مما آلَه لفترات بعيدة.

جاء إليّ مَن كُنت أنتظره منذ ما يقرب من ساعة أمام بحر الإسكندرية، ورأيته لأول مرة.. يوسف صديق ديلارا وحبيبها المنتظر كما وصفَت لي أمها بالهاتف، وأن أتحدّث إليه وأراه لأطمئنها، وها نحن نلتقِي كعالَمَيْن مختلفين، أيضاً كمشرق ومغرب.. كبداية صباح وغروب شمس، مثل هذا الغروب الذي أوشك أن يأتي وأنا بانتظاره.

يوسف:

- مازن صح؟

مازن:

- أهلًا يا يوسف.

- أهلًا بِيك.. كنت أحب أستَضِيفَك في بيتي!

- مفيش داعي.. على البحر هنا أحسن.

- زي ما تحب.. كنت عاوزني في إيه! هي ديلارا كويسة؟!

استمر حديثنا ساعة أخرى وتعجبُه من رؤيتي، إلا أنه بدا مهتمًا جدًا بما قد أحمله له من أخبار، وعن فتاتي التي أحبَّها هو أيضًا، قلبي توقف تمامًا حينها، وأصبحتُ فقط صديقها الذي يريد معرفة الشاب

المتقدم إليها، وعما نجهله نحن حتى تطمئِنّ أمها، والغريب لأطمَئِنَّ أنا أيضاً، وأعرف مَن كانت برفقته هي بالشهور الماضية.

لم أرتح تمامًا وعرفت أنه يحبها، ولكني خشيتُ عليها ولم أُرِدْ أن تكون مشاعري هي سابق لعقلي، ولكنّ حدَسِي أيضاً يخطئني، ولكني أردتُ ألا أتدخّل بينهما، وأن أترك الاختيار لديلارا، وألّا أقف عقبة أمام الحياة التي اختارتها.. هكذا بعدما تحدثتُ إليه، ولم يعد للحديث بقية!

رأيتُ اختلافًا عن بعضنا تمامًا.. شجاعته.. تهوّره.. عناده.. ثقته الزائدة واعتداده بنفسه وأحلامه، وطموحٌ يملأ صوته عندما يتحدّث عن فرقته، وعمّا يريد أن يصل إليه، بالفعل نحن عالمان مختلفان أمام فتاتِي، وعليها أن تختار عالمها الذي تحب.

وهكذا عدتُ أنظر لأمواج البحر التي هدأَت مجددًا، وبعد أن انتهى بيننا الحديث؛ متأملًا الغروب المفترِش أمامي، وانسحبتُ كغروب شمسٍ وقرصها الذي سقط توًا في الأمواج حتى غاب مخفيًا بداخلي دمعة لامعة حُبِسَت بقرص عيني.. مودعًا صديقها، ومستسلمًا لقدرٍ جديدٍ يشبهني.. ورحلت.

-ديلارا-

(لم يترك لي خيارًا آخر.. ربما! ولم أترك لهم الفرصة أيضًا كذلك)

حضنتُ أمي كثيرًا وكفَفْتُ دموعها عني، وتخلّلَت هي بأصابعها الرقيقة خصلات شعري الكثيف، وعيناي تقبّلها وتحفظ صورتها حبًا وخوفًا واشتياقًا.

قابلتُ نوران صديقة مازن، وأخبرتها بمدَى أسَفِي لمَا فعلته بمازن، لم أعرف لمَ ارتحت لها؟ ولكنها كانت مثل صديقة تمنّيتُ أن أعرفها يومًا، ولأنها تذكّرني بمازن وهدوئه معي.. أعطيتها ظرفًا به خطابٌ كتبتُه لمازن، ربما خذلَتْنِي الكلمات كثيرًا وأنا أعلن له عن خطئي، ولو لهذه المرة، وعلّقْتُ بنفسي جملة ممّا كتبته إليه رافقَتْنِي لساعات..

(لمّا حبّتْني ماكُنتش بحب نفسي زي ما انت حبتني.. كنت بهرب منها، ولما هرِبْت منك ومالَقِتْش حد أستخبَّى في حضنه.. واجهت نفسي وحبّيتها، وفضلت انت لي القدر اللي اترسم من قبل ما نتولد وجمعنا سوا، والكون اللي عايش جوايا، انت اللي لما بشوفك بصدّق إن الحياة تستحق تتعاش.. شُفتَك قَمرِي.. ضَيّ.. روح.. لمَسْت روحي وتخلَّلْت جوايّا للأبد)

حضنتُ جيتاري وعيناي تؤلماني من كثرة البكاء، قلبي ينبض سريعًا، ولكني أملك الشجاعة الآن.. ابتسمت، وترجلتُ من السيارة في إحساس من الحرية رافعًا إياي عالياً، سحبتني عاليَة من ذراعي مرورًا من البوابات الضخمة.

عاليَة:

- يلّا يا ديلارا هنتأخر!

ديلارا:

- تيجِي نجري؟!

- مجنونة انتِي! نجري؟! في المطار!

- يلّا بسرعة يا عاليَة.. هَسبَقِك.

حملتُ جيتاري خلفي وساحبة لحقيبتي، وعاليَة خلفي تحمل حقيبتها ونضحك سويًا على حماقتنا، وعلى من يرَونا، ونحن نجري؛ لنلحَق بالطائرة الخاصة بنا، المتجّهَة إلى كازابلانكا لملاقاة صديقتي إكرام، وبعد إقناع أمي لأسبوعين وجَدْنا تذاكرَ أخيرًا لنذهب، ولتأجيل ما لم أعُدْ أعرف إن كان يجب أن يحدث هكذا بعد خناقات عدة مع يوسف وتركه لي لأفكر، وتاركة إياه لهدأ.

(أعلم أنه هروب مجددًا، ولكني لست نادمة، بل أريد أن أجد طريقًا آخر..

ورحلتُ مع صديقتي المفضلة إلى المغرب)

(ختام)

ربما هي الفصول الأخيرة من القصة، ولكنها ليست النقط الأخيرة: فكم من النهايات تكتب وتعلن عن نفسها! ولكننا نعلم بداخلنا أنّها فصلًا آخر لم يكتب، وحكاية أخرى لم تُروَ بعد، وأبطال آخرون لم نرَهم ولكنهم هناك؛ فهي حلقات متّصلة وفواصل؛ لتروِي لنا أننا في تلك الحياة ما نحن إلا قصَصًا تُروَى وحكايات بداخل أجسامنا، وأرواحنا تعرف الحقيقة! ويومًا ستخبرنا بها، ويومًا آخر سنكون نحن من يبحث عنها حتى نجدها، ها هي مكتوبة منذ البداية بحروف أسمائنا وبأرقام أعمارنا، وتواريخ تَركَت لنا ميلادًا جديدًا وحياة أخرى، ولتبدأ قصة أخرى..

إلى اللقاء في (كازابلانكا)..